

سُورَةُ هُوَدٍ



النَّزْولُ: مَكِيَّةٌ.

المَقَاصِدُ:

- ١ - تقرير أصول العقيدة الإسلامية من توحيد الله، وتقرير البعث والجزاء، وإثبات الرسالة بدلالة عجز الكفار عن معارضته القرآن، وما حواه من حُجج وعبر.
- ٢ - التخويف من عذاب الله تعالى العاجل والأجل، وبيان الأسباب المفضية للعذاب، وضرب المثل بالأمم السابقة للوقوف على أسباب هلاكها.
- ٣ - تسليمة النبي ﷺ، وتشبيته ببيان صبر الأنبياء على أقوامهم ونجاتهم، وبيان نعم الله تعالى على أنبيائه ﷺ، وشكرهم لهذه النعم، وبيان منهجه الأنبياء في الدعوة والحوار.
- ٤ - إبراز دلائل قدرة الله تعالى في خلق الكون، وتدبيره.
- ٥ - الدفاع عن القرآن، والرد على شبهات المبطلين، وافتراضات الظالمين.
- ٦ - التحذير من اتباع الطغاة، وتقليد الضالين، والاغترار بكثرة الهالكين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَتَبَ أُحْكِمَتْ إِيمَانُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنَ الْدُّنْ حِكْمَةٌ حَيْرٌ﴾ ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنَعُكُمْ مَّنْعًا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمٌّ وَيُؤْتَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلًا، وَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٍ يَوْمَ كَبِيرٍ﴾ ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿أَلَا إِنَّمَا يَنْهَا صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرُكُ وَمَا يُعْلَمُونَ إِنَّمَا عَلِيهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

التفسير:

١ - بدأت السورة الكريمة بهذه الأحرف للتنبيه والتحدي ، فالقرآن نزل بالعربية ، وهذه حروفها ؛ فهل يقدر أرباب الفصاحة وأساطين البيان أن يأتوا بمثله أو بسورة منه ، وهو كتاب باللغة حَدَّ الكمال في حسن الرصف ، وبديع الوصف ، وروعة الأسلوب ، فلا يتطرق إليه خَلَلٌ ولا اختلاف ، فآياته متقدنة ، لا يعتريها خَلَلٌ ، مفصلة ، مبينة على أكمل بيان ، وأجلى برهان .

٢ - يرشد الله تعالى أمة رسوله الكريم ﷺ أن يُوحِّدوا الله تعالى في عبادته وحده ، فهو المستحق للعبادة ، والرسول ﷺ يخاطبهم : إنني لكم من قبله نذير لأهل معصيته سُخطه وعقابه ، وبشير لأهل طاعته بفضله ورضوانه .

٣ - واطلبوا مغفرة الذنب من خالقكم ، ثم توبوا إليه توبة خالصةً نصوهاً ، يَمْنُنُ عليكم بطيب العيش والعافية ، وطول العمر في طاعته ومرضاته إلى أن تنقضي الآجال ، ويجعلكم خير الأمم قوةً وعلماً ونعمـةً ومتعاً ، ويعطي كلّ عامل بقدر عمله في الدنيا والآخرة ؛ لأنّ المراتب متفاوتة في الدارين

بتفاوت الأعمال، وإن تُعرضوا عما جئتم به من الهدى والبيان، فإني أخاف عليكم من سوء العاقبة، وأليم العذاب، في يومٍ كبيرٍ حافلٍ بالأهوال العظام.

٤ - إلى الله تعالى مصيركم ومَرْدُكم، وهو القادرُ على كل شيء. ومن ذلك قدرته تعالى على إعادتكم وبعثكم وحسابكم وجائزكم.

٥ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أناس كانوا يستحبون أن يتخلّوا، فيفضّلوا إلى السماء، وأن يجتمعوا نساءهم فيفضّلوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم». (صحيح البخاري - كتاب التفسير، باب سورة هود، برقم ٤٤٠٤).

التفسير:

يُحذّر الله تعالى أولئك المعرضين، كيف يحتالون إذا لقوا النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه في طريق أو في سوق ليتحفّلوا منه، ويتواروا بعيداً عنه؛ حتى لا يراهم، فيميلوا عنه ويَزُورُوا منه. وهذا من جحودهم وجهلهم وغفلتهم عن إحاطة علم الله بسرّهم وعلّنهم، وما يَسْتَكِنُ في صدورهم، ويَدُور بخلدهم من الوساوس والهواجس والخواطر والأفكار. والتنبيه يشمل تصحيح خطأ أولئك الناس الذين كانوا يستحبون أن يتخلّوا، فيفضّلوا إلى السماء عند جماع نسائهم، والله تعالى المطلّع عليهم، العليم بما تنطوي عليه قلوبهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - أجملت الآيات مقاصد الكتاب وخصائصه ومهمة الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه، فقد جمع القرآن بين الإحکام والتفصیل، كما جمع هذا النبي الكريم صلوات الله عليه وآله وسلامه بين البشارة والنذارة.

٢ - تقديم الإنذار على التبشير؛ لأنَّ من امثل للنذارة استحق البشارة، فالعبد لا يستحق البشارة إلا إذا كان أهلاً لها، بينما النذارة عامة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم؛ لذا تأتي على إطلاقها، بينما تأتي البشارة مقيدةً بمن يستحقها من المؤمنين.

٣ - في إسناد الإحکام والتفصیل إلى آياته؛ لبيان كون الإحکام والتفصیل عاماً في سائر الآيات.

٤ - التعبير بـ (ثم) لإفادة التراخي الرُّثبي بين منزلة الإحکام ومتزلة التفصیل؛ فالإحکام هو الدقة والإتقان، والتفصیل هو البيان، أو التراخي الزمني بحسب نزولها جملةً ثم مفرقة حسب الواقع والأحداث.

٥ - وفي بناء الفعلين للمفعول مع إسناد التفصیل إلى الحکيم الخبير، بيان لفخامة کلام الله تعالى وجَمْع معانیه بين الحکمة والدقة والعمق.

٦ - بَيَّنَتِ الآیاتِ مصیرَ النَّاسِ، وَمَرَدَّهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَسْتَعْدُوا وَيَتَزوَّدُوا لِلقاءِهِ.

٧ - قَدَّمَ الاستغفار على التوبه؛ لأنَّها بمنزلة التخلية قبل التحلية، والإسعافات العاجلة قبل العلاج الناجع.

٨ - في التعبير عن العمل بالفضل إشارة إلى مزية العمل، وسُمُّوٌ قدره قوله: ﴿وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلًا﴾ ولبيان كون الجزاء من جنس العمل.

٩ - وصف المتع بالحسن ترغيباً فيه وتشويقاً إليه، فالمؤمن يحيا حيَا طيئاً في الدنيا، وينعم في الآخرة بالأمن والسعادة الأبدية.

١٠ - إعراض الكُفَّار عن كتاب الله، وَتَحَايُلُهُمْ وَمَرَاوغَتِهِمْ؛ لِئَلَّا يستمعوا إليه.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رُزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْنَقَرَهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾٦
 ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَيَّةٍ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ
 لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحَسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾٧ وَلَئِنْ أَخْرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَيْهِ أُمَّةٌ مَعْدُودَةٌ لَيَقُولُنَّ مَا
 يَحْسُسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْهِلُونَ ﴾٨ وَلَئِنْ
 أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَتُوْسُّ كَافُورٌ ﴾٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءً
 بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتُهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ أَسْسِيَّاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَحْ فَحُورٌ ﴾١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَآجَرٌ كَيْرٌ ﴾١١﴾

التفسير:

٦ - ومن إحاطة علمه تعالى، وكمال قدرته، وعن اياته بخلقه وتدبيره لملكه: تكفله بكل ما يدب على ظهر الأرض من المخلوقات، يرزقها، ويعلم مكانها الذي تقطنه وتأوي إليه، وتبيت فيه حال حياتها من الأوكار والجحور والكهوف، وموتها الذي تودع فيه بعد موتها. كل ذلك في اللوح المحفوظ الذي يُحصي كل صغيرة وكبيرة.

٧ - وهو سبحانه الذي خلق السموات في أربعة أيام والأرض في تتمة الأيام الستة، وكان عرشه على الماء، خلقهما ليختبر العباد، ويُجازيهم على أعمالهم، فيثيب المحسنين، ويعاقب المسيئين. ولئن أخبرتهم يا محمد بأنهم مبعوثون من بعد موتهم، ليقولن: ما هذا الذي جئت به إلا سحر واضح.

٨ - وقسمًا إن آخرنا عن هؤلاء الكفار العذاب برهة من الزمان تسألهوا مشككين: ما يمنعه عنا؟ لا إنه أجل محدود وقضاء مبرم، إذا جاء فلا صارف له ولا دافع، وحينئذ يحل بهم ما كانوا به يسخرون ويستبعدون.

٩ - ومن طبائع النفوس الرديئة ما تُبديه من سخط وجزع عند تبدل النعم، وتحول العافية، فتراها يائسة من كل خير، قانطة من كل رحمة، ناسيةً وجاحدةً ما سلف من نعمة.

١١ - وكذلك حال تلك النفوس إن هبّت عليها العافية، وأذاقها الله حلاوة النعم، فإنّها تركن إلى الدّعة وتحلّد إلى الرفاهية، وتفرح فرحة الغفلة والغرور، وتحتال وتزهو غافلةً عن سنن الله، آمنةً من تقلبات الزمان، وتبدل الأحوال، وناسية لفضل الله ورحمته. ثم استثنى الله تعالى مَنْ وَطَّنَ نفسه على الصبر عند النوازل والرزايا، وزَكَّاها بالأعمال الصالحة، فإنّ نفسه لا تجُن لمحنّة، ولا تغترّ بنعمةٍ. أولئك أصحاب المنازل السامية والهمم العالية، لهم مغفرة عظيمة على صلاحهم ورجائهم وشكرهم لربهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - عظيم قدرته تعالى، وكمال رُبويته، وتدبيره للمخلوقات كلّها، وتَكَفِّله برزق كلّ دابة وإحاطة علمه تعالى بحركاتها وسكناتها ومالها.
- ٢ - إثبات اللوح المحفوظ، ووضفه بالمؤمنين.
- ٣ - من الأدلة المادّية على إمكان البعث خلق السّموات والأرض في ستة أيام، ومع ذلك يستبعد الكفار، وينسبونه إلى الوهم والتّخييل.
- ٤ - يقين الإنسان بخالقه وتوّكله عليه، فهو الخالق الرازق المدبر، العليم بأحوال خلقه.
- ٥ - العرش والماء كانا قبل خلق السّموات والأرض. عن عُمران بن حصينٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ».

(صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ برقم ٦٩٨٢).

- ٦ - الابتلاء من سنن الله تعالى الماضية في هذا الكون، يُمحّصُ به القلوب، ويُشحذُ الهمم، ويُضُلُّ المواهب، ويُفجّرُ الملّكات، ويرفع الدرجات.
- ٧ - دعوة القرآن للتنافس في فعل الخيرات، والمبادرة إلى فضائل الأعمال، والتسابق إلى أعلى الدرجات والإحسان في كل عمل، وحفظ الهمم إلى طلب معالي الرُّتب.
- ٨ - تحليل طبائع النفوس و موقفها من السّراء والضّراء، وبيان ما تنطوي عليه نفوسُ الكثير من رديء الطباع وذميم الخصال، والقصور عن فهم سُنة الابتلاء.

- ٩ -** دَمْ حَالٍ كثِيرٌ مِنَ النُّفُوسِ الَّتِي تَجْزَعُ وَتَبْرَّمُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، إِذَا أَصَابَتْهَا الْعَافِيَةُ تَحَوَّلُ إِلَى الْغَرُورِ وَالْغُفْلَةِ وَالْجَحْدُودِ.
- ١٠ -** المُقَابَلَةُ بَيْنَ التَّعْبِيرِ بِـ﴿أَدْقَنَا﴾ الَّذِي يُفِيدُ الْلَّذَّةَ وَالْأَغْبَاطَ، وَقُولُهُ: ﴿نَزَعْنَاهَا﴾ الَّذِي يُفِيدُ شَدَّةَ تَعْلُقِهِ بِالنِّعْمَةِ، وَحُرْصَتِهِ عَلَيْهَا.
- ١١ -** مِنْ ذَخَائِرِ الصَّبْرِ، وَغَرَاسِ الْأَعْمَالِ، وَقُوَّةِ الرَّجَاءِ وَالْيَقِينِ: الْمُغْفِرَةُ وَالْأَجْرُ الْكَبِيرُ.
- ١٢ -** الرُّدُّ عَلَى مَنْ يَتَعَجَّلُ الْعَذَابَ اسْتِبْعَادًا لَهُ وَتَشْكِيكًا فِيهِ، فَإِمْهَالُ اللَّهِ تَعَالَى الْكَافِرِ لِحُكْمِهِ يَعْلَمُهَا.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَايِقٌ بِهِ صَدُورُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاهَةٌ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَلِيلٌ ﴾٢٣﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرَهُ قُلْ فَاتَّقُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفَتَّرِيَّتٍ وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾٢٤﴿ فَإِلَمْ يَسْتَحِيُّو الْكُمْ فَاعْلَمُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾٢٥﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَيَّنَهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِنُونَ ﴾٢٦﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا أَنَّكُارُ وَحَكِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾٢٧﴿ أَفَنَ كَانَ عَلَى بَيْنَتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتَوَهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كَتَبْ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْرَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَأْتُكُ فِي مَرْيَقَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾٢٨﴾

التفسير:

- ١٢ -** لَا يَشْنَيْنَ مِنْ عَزْمِكَ، وَلَا يَصْرِفَنَكَ عَنْ دُعَوَتِكَ، مَا يُرَدِّدُونَهُ مِنْ أَبَاطِيلِهِ، وَيُشِيرُونَهُ مِنْ أَقَاوِيلِهِ وَيُلْحُونُ فِيهِ مِنْ مَطَالِبِ تُسْفِرُ عَنْ تَعْنِتِهِمْ، وَتَكْشِفُ عَنْ صَدُودِهِمْ، إِذَا يَقُولُونَ: لَوْلَا وَقَعَ عَلَيْهِ كَنزٌ، أَوْ هَبَطَ عَلَيْهِ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ يَصْدِقُهُ؛ جَهَلًا مِنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الرِّسَالَةِ، وَدُعْوَةِ الرَّسُلِ وَهِيَ الإِنْذَارُ وَالبِيَانُ، فَلَا يَفْتَحُ هَذَا مِنْ عَضْدِكَ، وَلَا يَحْمِلُكَ عَلَى تَرْكِ بَعْضِ مَا أَوْحَى

إليك استجابة لهم؛ فلَسْتَ بِمُوَكِّلٍ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ، والله تعالى المتكفلُ بكل ما في الكون، يتولى أمور العباد، ولو شاء لجاءهم بتلك الآيات.

١٣ - أشاع المشركون أنَّ القرآن من عند محمد ﷺ أَلَّفَهُ، ونَسَبَهُ لربه. فقل لهم: فَلْتَقْرُوا عَشْرَ سُورًا مشابهَةً لِهِ، ولتسْتَعِينُوا بِمَنْ شَيْئُمْ مِنَ الْخَلْقِ، ومن الأَلَّهِ الَّتِي تَنْافِحُونَ عَنْهَا، إِنْ كَانَتْ دُعَواكُمْ حَقِيقَةً.

١٤ - فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَى مَعْرِضَتِهِ، وَلَمْ تَسْتَجِبْ لِكُمْ آهَاتِكُمُ الْمَزْعُومَة، لَزِمَّكُمُ الْعِلْمُ الْقاطِعُ بِأَنَّ هَذَا الْكِتَابُ إِنَّمَا نَزَّلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَا رَبَّ غَيْرَهُ وَلَا مَعْبُودٌ سَوَاهُ، فَهَلْ أَنْتُمْ بَعْدَ هَذَا الْبَرْهَانِ مُنْقَادُونَ لِهَذَا الدِّينِ، مُسْتَسِلُونَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟

١٥ - مَنْ كَانَ طَلَبَ الدُّنْيَا وَالظُّفَرَ بِهَا بُغْيَتِهِ، فَصَرَفَ إِلَيْهَا هِمَّتِهِ، وَقَصَرَ عَلَيْهَا سَعْيَهِ، وَضَيَّعَ آخِرَتِهِ، نَالَ مِنْ دُنْيَا بِقَدْرِ عَزْمِهِ وَسَعْيِهِ وَالتَّمَاسِ لِلأَسْبَابِ، فَلَا يُظْلَمُ وَلَا يُهْضَمُ، بَلْ يَسْتَوِي أَجْرُ مَا قَدَّمَ لِدُنْيَا الْفَانِيَةِ.

١٦ - أَوْلَئِكَ الْبُعْدَاءُ الْمُحْرَمُونَ الَّذِينَ تَعَلَّقُوا بِحِبَالِ الدُّنْيَا الْبَالِيَّةِ، وَاغْتَرُوا بِزَخَارِفِهَا الْفَانِيَةِ، لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ إِلَّا النَّارُ، وَذَهَبَ عَنْهُمْ نَفْعُ مَا عَمِلُوهُ مِنْ صَنَاعَةٍ، وَمُهَدَّرٌ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ، لَا وزَنٌ لَهَا فِي الْآخِرَةِ.

١٧ - أَفَمَنْ كَانَ عَلَى نُورٍ وَبَصِيرَةٍ وَهُدًى مِنْ رَبِّهِ، وَيَعْضُدُ ذَلِكَ بِرَهَانٌ جَلِيلٌ وَشَاهِدٌ مِنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا وَهُوَ كَتَابُهُ الْعَظِيمُ، وَيُؤَيِّدُهُ شَاهِدٌ قَبْلَهُ، وَهُوَ التُّورَةُ الَّتِي نَزَّلَتْ إِمَامًا لِلْهَدِيَّةِ وَالْخَيْرِ وَرَحْمَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي دُنْيَا هُمْ وَآخِرَاهُمْ. أَوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَّةِ الَّذِينَ تَجَلَّتْ لَهُمْ تِلْكَ الْحُجَّاجُ الْمُتَتَابِعُونَ وَالْبَرَاهِينَ السَّاطِعَةِ يُصَدِّقُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْمُمْلِكَاتِ كُلُّهَا، فَالنَّارُ مَوْعِدُهُمْ وَمَلْتَقَاهُمْ، بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِي حَيَاتُهُمُ الْبَائِسَةُ، فَلَا تَكُنْ أَيْهَا الْمُؤْمِنُ بَعْدَ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَالْقَرَائِنِ الْمُتَضَافِرَةِ فِي شَكِّ مِنْهُ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الْثَابِتُ مِنْ رِبِّكَ، وَلَكُنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يُصَدِّقُونَ؛ جَحودًا وَعَنَادًا، أَوْ جَهَلاً وَغَفَلَةً.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - حملة التشكيك والصدود لا ينبغي أن تُثني الداعية عن دعوته.
- ٢ - ضرورة التَّفرقة بين ما هو مطلوب من الدَّاعية مندرجٌ في واجباته، وبين ما لم يُطلب إليه حتى لا يشغل به عن الواجب.

٣ - عَجْزُ الْمَشَكِّكِينَ في القرآن والطاعنين فيه والمعارضين له، عن معارضته، حجة على الكافرين، وتذكرة للمؤمنين، وتنقية لإيمانهم ويقينهم. وإعجاز القرآن يستلزم التسليم بأنه أنزل من عند الله، كما أنه دليل على وحدانيته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

٤ - إفراد الخطاب ﴿قُلْ فَأَتُوا﴾ ثم جَمْعُه في ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُونَا لِأَنَّ﴾ الخطاب أولاً للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمره الله بأن يتهدّاهم، ثم لا يزال التحدي قائماً إلى أن تقوم الساعة، قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَآءَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الخطاب للجميع: المؤمن ليزدادَ عِلْمًا وَتَبَصُّرًا ومعرفة وانقياداً لأوامر الله، والكافر ليعلمَ بعد جهل ويومنَ بعد كفر، ويسلكَ طريق الإسلام مُسْلِمًا بحجة الله البالغة.

٥ - حُظُّ الكفار من النعم ما يَحْصُلُ لهم في الدنيا، أما الآخرة فلا نصيب لهم فيها؛ فهم المحرومون المغبونون، كما في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ذكر له فارسَ والرُّومَ، وما هُمْ فيه من المُتَعَةِ: «أُولَئِكَ عُجَّلْتُ لَهُمْ طَبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». (صحيف البخاري، كتاب المظالم، باب الغرفة والعليمة المشترفة في السطوح وغيرها برقم ٢٣٣٦).

٦ - الْأُمُورُ بِمَقَايِدِهَا، وأثر الإرادات في تحديد النهايات.

٧ - العدول إلى اسم الفاعل ﴿وَرَطَّل﴾ دون الفعل الماضي؛ لئلاً يُوهم أنّها كانت صحيحةً، ثم طرأ عليها البطلان.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعَرَّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ
هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾١٩﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَيَغْوِنُهَا عَوْجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمُ الْكَفُورُ ﴾٢٠﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا
كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَائِهِ يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيُّونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا
يُبَصِّرُونَ ﴾٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقْرَرُونَ ﴾٢٢﴾ لَا جَرْمَ لَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ
أَصْحَّبُ الْجَنَّةَ هُمْ فِيهَا حَلِيلُونَ ﴾٢٤﴾ مَثُلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْأَبْصَرِ وَالْسَّمِيعِ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا نَذَرُونَ ﴾٢٥﴾

التفسير:

١٨ - ولا أحد أظلم ممن كذب على الله تعالى وتقول عليه. أولئك البُعداء عن الحق يعرضون على ربهم عرض افتضاح، في موقف مهيب ومشهود من مشاهد الخزي والعار، وبشهادة الأشهاد من الملائكة والنبيين وسائر الصالحين عليهم بالكذب، فينهتون ويقضون، ويجللون بالخزي والإبعاد، تلاحقهم اللعنات أينما حلوا، لأنهم ظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم بكذبهم وافتائهم.

١٩ - الذين يصررون الناس عن سبيل الله معوضه واستقامته يسعون دائمين إلى طمس معالمه، وتغيير مساره؛ لينحرف عن استقامته، ولتصبح الأمور معوجة، توافق أهواءهم، مع ما هم عليه من كفرٍ باليوم الآخر.

٢٠ - هؤلاء البُعداء ما كانوا في دنياهم بعيدين عن قدرة الله تعالى وسلطانه، وما كان لهم من دون الله مَنْ ينصرهم ويدافع عنهم، لكن الله أمهلهم، وأخر عذابهم؛ استدراجاً لهم. وهما هم أولئك في آخرتهم التي ضيّعواها يُصبّ عليهم العذاب أضعافاً، لضلالهم وإضلالهم، ما كانوا في دنياهم يسمعون لداعي الحق؛ لنفورهم منه وكراهيتهم له، وما كانوا يبصرون الآيات المبثوثة من حولهم نظر تفكيرٍ واعتبارٍ، بل كانوا في عمىٍ وضلاله.

٢١ - هؤلاء المحرومون المُبَعَّدون قد خسروا أنفسهم في الآخرة، إذ أوردوها موارد التهلكة، وضيّعوا هذا النعيم المقيم بجحودهم وإنكارهم، وظهر لهم ضلال ما كانوا عليه في الدنيا من افتراء الأنداد، فبدت لهم وهمَا وسراياً، وفَقَدُوا الولي والنصير.

٢٢ - حقاً إنهم لا محالة في هذا اليوم العظيم من الخاسرين أعظم خسران، المغبونين أشد الغبن؛ لأنهم باعوا بالباقي النفيس الفاني الخسيس، وخسروا النعيم المقيم.

٢٣ - إنَّ الذين صدَّقوا بالله ورسله وكلماته، وعملوا الأعمال الصالحة النافعة، وأنابوا لربهم واطمأنوا إليه، وأخلصوا له. أولئك الذين تسامَّت منازلهم هم أصحاب الجنات، لا يَتَحَوَّلُونَ عنها ولا يَرْجِلُونَ، ولا يموتون ولا يهرمون.

٢٤ - ضَرَبَ الله تعالى المثل في هذه الآية الكريمة للكافر بالأعمى والأصمّ، فلا يبصر الآيات، ولا يُصْنِعُ لسماعها، وضرب المثل للمؤمن بالسمع والبصیر، يستمع لآيات الله بآذان صاغية، ويُبصِرُ آياته بعيون متفتحة، وبيَّنَ أنَّهُما لا يستويان، فهل من مُتَعَظِّمٍ يَعْتَبِرُ بهذا المثل، ويستحضره؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الآيات الجلية والحجج الساطعة تمحو ظلام الشك والباطل.
- ٢ - أشدُ الظلم وأقبحه الافتراء على الله تعالى، ومصير الكاذبين الافتراض على رؤوس الخلائق، واللعنة تُحاصرُهم في موقف العرض.
- ٣ - تأكيد خُسران الكفار لأنفسهم ولآخرتهم تحذيراً لهم، وتنفيراً من طريقهم.

- ٤ - الإيمان والعمل الصالح مع الإخبارات طريق الفوز بالجنت.
- ٥ - من أساليب القرآن ضرب الأمثال لإقامة الحجة، وتقرير المعاني، وتقريبها للأذهان.

- ٦ - التعبير بالفعل المضارع ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَوْجَ﴾؛ لاستحضار تلك الصورة ماثلةً كالعيان، واستهجانها، بينما عبر بالاسمية في ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كُفَّارٌ﴾؛ لبيان ثباتهم على الكفر، فلا يحيدون عنه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾٢٥﴾ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَيْنَكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْحِسْرِ ﴾٢٦﴿ فَقَالَ الْمَلَائِكَةِ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بِإِدَيْ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نُظْنُكُمْ كَذَّابِينَ ﴾٢٧﴿ قَالَ يَقُولُ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّي وَأَنِّي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعُيِّنَتْ عَيْنَكُمُ الْلَّهُمَّ مَكْمُوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾٢٨﴿ وَيَقُولُ لَا أَسْنَكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٌ الَّذِينَ إِمَانُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوْرَبِهِمْ وَلَكُفَّرُ أَرْكَنُ فَوْمًا بَجَهَلُونَ ﴾٢٩﴿ وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرِنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدُهُمْ أَفَلَا نَذَرَكُرُونَ ﴾٣٠﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي حَزَانٌ اللَّهُ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَدَّرُ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِهِمُ اللَّهُ حِيرَانٌ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمْنَ الظَّالِمِينَ ﴾٣١﴾

التفسير:

٢٥ - حقاً لقد أرسلنا نبينا نوحًا إلى قومه، فعرّفهم بالرسالة التي شرفه الله بها، وكلفه بتبلغها. إنّي لكم نذيرٌ ببلاغٍ واضحٍ بيّنٍ، أبین لكم طريق النجاة، وسييل الخلاص.

٢٦ - ألا تعبدوا إلا الله وحده، إنّي أُشفيقُ عليكم، وأُحدّركم من عذاب يوم موجع، وهو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة الذي يتحقق بالمخذبين.

٢٧ - فكان جواب أعيان الكفار من قومه: ما نراك إلا بشرًا مثلكم لا مزية لك ولا خصوصية، فاعتبروا على بشريته، ووهموا أنّ مقام الرسالة لا يبلغه إنساني، كما اعتربوا على حال من آمن به، فنظرروا إليهم بعين الازدراء والتحقير، استهانةً بهم، وتعاليًا عليه وعلى أتباعه، واستخفافاً بدعوته، فقالوا: وما نراك انقاد لك إلا الضعفاء والفقراة ومن لا يؤبه به من السفلة - في نظرهم - أتّبعوك بسذاجة منهم، دون تفكير وتعقل، فيما يظهر لنا! وما نرى عليكم من فضلٍ في رزقٍ ولا جاء حتى تنالوا الهدى دوننا، بل نراك كاذبين فيما تدعونه.

٢٨ - فناداهم نوحٌ متّرققاً: يا قوم! هلا نظرتم إن كنتم على نور وبصيرة وهدى من ربّي، وخاصّني برحمة من عنده، فاصطفاني وأعطاني، فحفّيت عليكم تلك البينة، أو التبست عليكم، فلم تُبصروها، ولم تعرفوها أو

تُمَيِّزُوهَا. أَنْلِزِمُكُمْ وَنُجْبِرُكُمْ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ لَهَا، نَاكِبُونَ عَنْهَا، وَنَافِرُونَ مِنْهَا!

٢٩ - ويَا قَوْمَ لَا أَسْأَلُكُمْ بِهَذِهِ الدُّعَوَةِ مَا لَأَنَّ فَمَا أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلْنَا، وَمَا أَنَا بَطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ أَحْتَنِي بِهِمْ وَأُدْنِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ؛ لِيَجْازِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، لَا بَحَسَبِهِمْ وَنَسَبَهُمْ، وَلِيُثْبِتَهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَيُرِفِعَ دَرَجَاتِهِمْ، وَلَكِنِي أَرَاكُمْ قَوْمًا تُصْرِرُونَ عَلَى جَهَلِكُمْ.

٣٠ - ويَا قَوْمَ مَنْ يُجِيرُنِي مِنَ اللَّهِ، وَيُدْفِعُ عَنِي سُخْطَهُ، إِنْ طَرَدْتُ أُولِيَّاءَهُ وَأَفْصَيْتُهُمْ. أَفَلَا تَبَصَّرُونَ بِحَالِكُمْ وَمَالِكُمْ وَتَعْظُونَ؟ وَفِي هَذَا تَلْمِيْحٌ بِمَكَانَةِ مَنْ آمَنَ بِهِ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَتَعْرِيْضٌ بازْدَرَاءَ الْكُفَّارِ لَهُمْ.

٣١ - وَلَا أَقُولُ لَكُمْ: عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، فَخَزَائِنُهُ تَعَالَى لَا سُلْطَانٌ لِأَحَدٍ عَلَيْهَا، وَلَا تُفْتَحُ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ جَلَّ وَعَلَا، وَلَا أَدْعُ إِلَيْكُمُ الْكِهَانَةَ وَالشَّجَرَةَ، وَلَا أَقُولُ: إِنِّي مَلِكُكُمْ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَنْظَرُونَ لَهُمْ بَعْنَ الْاحْتِقارِ: لَنْ يُمْنَحُهُمُ اللَّهُ خَيْرًا، وَهُوَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَكِنُ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ إِيمَانٍ. فَإِنْ فَعَلْتُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ تَجَاوِزْتُ أَمْرَ رَبِّيِّ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إِيْرَادُ القَصَّةِ بَعْدَ ضَرْبِ الْمِثَلِ، وَبَعْدَ أَنْ سِيَقَتِ الْأَدْلَةُ وَالْحَجَجُ، وَتَقَدُّمُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، مِنْ كَمَالِ الْمَحَاجَةِ وَتَمَامِهَا.

٢ - حِكْمَةُ نُوحَ ﷺ فِي دُعَوَةِ قَوْمِهِ، وَصَبْرِهِ عَلَيْهِمْ، وَتَدْرُجِهِ مَعَهُمْ فِي مُقَابِلَ سُوءِ أَدْبِهِمْ وَافْتَرَائِهِمْ وَتَعْنِتِهِمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ رَدًّا بَلِيغًا، مُعَرِّضاً تَارَةً، وَمُصَرِّحاً أُخْرَى.

٣ - حِرْصُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى نِجَاهِ أَقْوَامِهِمْ، وَإِشْفَاقُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتَرْفُقُهُمْ فِي دُعَوَتِهِمْ.

٤ - وَفِي هَذَا دَلَالَةُ عَلَى «الخط الفاصل بين الأنبياء وبين الزعماء»: الْأُولُونَ يَهْتَمُونَ بِإِرْشَادِ النَّاسِ إِلَى مَا فِيهِ سَعَادَتِهِمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، دُونَ إِغْرَاءِ بِمَالٍ أَوْ عَطَاءِ نَفْعٍ، وَالآخِرُونَ يَعْتَمِدُونَ فِي كَسْبِ الْأَتِيَاعِ عَلَى الْوَعْدِ بِالْمَنَافِعِ الْمَادِيَّةِ، وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ رَحِيقَةً مِنْ أَجْلِ كَسْبِ تَأْيِيدِهِمْ». (التفسير المتبير، وهبة الزحيلي: ٥٨/١٢).

٥ - النظرة المادية القاصرة من قبل أهل الكفر، وتعصّبهم لباطلهم، وتشبّثهم برأيهم للأمور، دون اعتدادٍ بآراء غيرهم، واتهامهم لأهل الحق بالسذاجة، كما اتهم قوم نوح مَنْ آمنَ به بقولهم ﴿وَمَا نَرَاكُ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُلُكَ بِأَدَى الرَّأْيِ﴾.

٦ - دعوة الرسل ﷺ واضحة جلية، تُسلّم لها العقول السليمة، وتقبلها الفطرة.

٧ - القَدْحُ في بشرية الرسل قَدْحٌ في جميع البشر، وفي جميع العلوم المستفادة منهم.

٨ - رسالة الأنبياء ودعوتهم لقومهم تجمع بين الوضوح والصدق مع الإيجاز واليسر، والثبات على المبادئ.

﴿قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَنَدْلَتْنَا فَأَكَرْتَ حِدَلَنَا فَأَنْتَ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣٢) قالَ إِنَّمَا يَأْنِيُكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِينَ^(٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِحُ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٣٤) أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرَنَّهُ قُلْ إِنْ أَفَرَنَّهُ فَعَلَى إِحْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَحْرِمُونَ^(٣٥) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمَكَ إِلَّا مَنْ قَدْ أَمَنَ فَلَا يَنْتَسِسُ بِمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ^(٣٦) وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ يَأْعِيْنَا وَوَحِيْنَا وَلَا تُخَطِّبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرِفُونَ^(٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلُّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخَرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخَرُوا مِنَنَا فَإِنَّا نَسْخُرُ مِنْكُمْ كَمَا سَخَرُونَ^(٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيْهُ وَيَحْلِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ^(٣٩) حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ نَارًا وَفَارَ النَّورُ قَلَنَا أَحْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ أَنْتَنِيْنِ وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ مَاءَمَ وَمَا أَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٤٠)

التفسير:

٣٢ - رد المشركون بمكابرة وعناد على نوح ﷺ قائلين: يا نوح قد خاصمتنا، وأطلت في ممارانا، وسئمنا من ذلك، فعجل لنا ما توعدتنا به، إن كنت صادقاً في ذلك.

٣٣ - ٣٤. فأجابهم بثقة وثبات: إنَّ الَّذِي يأْتِي بِهَذَا الْوَعْدِ وَيُسْوِقُ الْعَذَابَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، إِنْ شَاءَ عَجَّلَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَخْرَهُ، فَلَا مُهَرَّبٌ لَكُمْ وَلَا حِيلَةٌ إِنْ وَقَعَ بِكُمُ الْعَذَابُ، وَلَا سَبِيلٌ لِمَدَافِعَتِهِ، وَلَا تُجْدِي نَصِيحَتِي فِي كُمْ مَعَ حِرْصِي وَإِشْفَاقِي عَلَيْكُمْ، إِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَرِيدُ لَكُمُ الرُّشْدَ، فَهُوَ خَالِقُكُمْ وَمُدَبِّرُ أُمُورِكُمْ، وَإِرَادَتِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ هِيَ النَّافِذَةُ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ وَمَا بَكُمْ، فَيَحِاسِبُكُمْ عَلَى أَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ.

٣٥. أَيَّدُّونَ أَنَّ نَوْحًا افْتَرَى هَذَا الْقَوْلُ، وَاخْتَلَقُوا هَذَا الْوَعْدَ. قُلْ: إِنْ اخْتَلَقُتُهُ مِنْ تَلقاءِ نَفْسِي، فَحَسَابِي عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَعْقِبُنِي بِجُرمِي، وَأَنَا بِرِيءٍ مِنْ جُرمِكُمْ وَافْتَرَاءَتِكُمْ، فَلَا يَتَحَمَّلُ أَحَدٌ وِزْرَ غَيْرِهِ.

٣٦. وَبُلَّغَ نُوحٌ ﷺ أَنَّهُ لَنْ يُصَدِّقُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِكَ غَيْرَ مَنْ سَبَقَ لَهُ الْإِيمَانُ، فَلَا تَحْزُنْ، وَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا دَائِبِينَ عَلَيْهِ مِنْ سُخْرِيَّةٍ وَتَكْذِيبٍ وَتَضْيِيقٍ وَإِيذَاءٍ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الانتقامِ مِنْهُمْ، وَهَذِهِ بَدَايَةٌ نَهَايَتِهِمْ.

٣٧. وَاصْنُعْ السَّفِينَةَ بِرْعَائِتِنَا وَإِحْاطَتِنَا وَحْفُظْنَا، وَتَوْجِيهَنَا وَأَمْرِنَا لَكَ أَنْ تَصْنَعَهَا، وَتَعْلِيمَنَا إِيَّاكَ كَيْفَ تَصْنَعُهَا، وَلَا تَلْتَمِسْ مِنِّي إِمْهَالًا أَوْ لَنْكَ الظُّلْمَة؛ فَإِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ لَا مَحَالَةَ.

٣٨. وَشَرَعَ ﷺ فِي صَنَاعَةِ السَّفِينَةِ بِجَدٍّ وَهِمَّةٍ، وَالنَّاسُ فِي دَهْشَةٍ وَاسْتَغْرَابٍ، يَمْرُونَ عَلَيْهِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيُثْبِطُونَ هَمَّتَهُ وَيَهْزِئُونَ بِمَهْمَتِهِ، فَيَطَّاولُونَ عَلَيْهِ فِي غُدُوْهُمْ وَرَوَاحِهِمْ، وَيَتَنَدَّرُونَ بِصَنْعَتِهِ، فَكَانَ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ مَحْذِرًا وَمُنْذِرًا، بَأْنَ الْأَخْرِيَّ بِكُمْ أَنْ تُرَاجِعُوا أَنفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَقْعُ وَيُحْكَمَ الْقَضَاءُ، وَيَحْلَّ الْعَذَابُ. إِنْ كَانَتْ صَنَاعَةُ سَفِينَةِ النَّجَاهَةِ عَجِيْبَةً، فَإِنَّ غَفْلَتِكُمْ مَعَ دُنْوِ أَجْلِكُمْ أَوْلَى بِالْعَجَبِ! فَإِنْ كُنْتُمْ تَهْزَئُونَ بِنَا، وَتَسْخَرُونَ مِنْ فِعْلِنَا، فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْ غَفْلَتِكُمْ عَنِ الْعَذَابِ.

٣٩. فَسُوفَ تَعْلَمُونَ عِيَانًا مَنْ يَأْتِيَهُ عَذَابٌ يُذْلِلُهُ وَيُهْبِيْنُهُ وَيَفْضَحُهُ، وَيُسْلِمُهُ لِعَذَابٍ دَائِمٍ لَا يَنْقُطُعُ، فَهَذَهُمْ بَعْذَابُ الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ مُقَدَّمٌ لِعَذَابِ الْآخِرَةِ.

٤٠. حَتَّى إِذَا حَلَّ الْقَضَاءُ وَفَارَ التَّنَوُّرُ - الَّذِي يُخْبِزُ فِيهِ - بِالْمَاءِ، عَلَامَةً وَمِيقَاتًا عَلَى ارْتِفَاعِ الْمَاءِ لِرَكْوبِ السَّفِينَةِ، وَإِيذَانًا بِهَلاْكِ قَوْمَهُ فِي الطَّوفَانِ، فَاحْمِلُ فِيهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ كُلِّ صَنْفٍ زَوْجَيْنِ، وَأَهْلَكْ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ

القول منهم فلم يؤمن. وما آمن معه إلا نفرٌ من أهل بيته، وقليلٌ من المؤمنين مع طول إقامته بينهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - رعاية الله لأنبيائه ولطفه بهم، وتشييدهم، وتسرّيه لقلوبهم.
- ٢ - حماية التوازن والتنوع البيئي من واجبات الإنسان.
- ٣ - الأنبياء ﷺ هم رواد الإصلاح، والتحضر والرقي.
- ٤ - أول سفينة بحرية كانت بوحي من الله تعالى، صنعتها نوح ﷺ.
- ٥ - الداعية لا يأبه بسخرية المكذبين وتهكمهم؛ لأنّه على ثقة بوعده الله تعالى.
- ٦ - إثارة الكفار غبار الشهوات حول الأنبياء دليل عجزهم عن مقارعة الحجج، ونوكولهم عن التسليم بها.
- ٧ - منطق أهل الكفر: المماراة والتشكيك، والاستخفاف بالوعيد، وسوء الأدب مع الأنبياء.
- ٨ - قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَا كُلُّ إِنْ أَفْتَرْتُهُ، فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُحَرِّمُونَ﴾ وإن كانت في سياق قصة نوح ﷺ إلا أنها تتضمن ردًاً على دعاوى الكفار أن القرآن من عند نبينا محمد ﷺ، فإن كان مفترى كما يزعمون فالله ينكل بالمفترى، ويعاقبُه بجُرم افترائه، والرسول بريء من إجرام الكفار، ولا يؤخذ به.

﴿ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا سُمْرَ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾٤١ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ
فِي مَوْجٍ كَلْجِيْكَالِ وَنَادَى نُوحُ أَبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْتَغِي أَرْكَبَ مَعْنَا وَلَا تَكُونُ مَعَ
الْكَافِرِينَ ٤٢ قَالَ سَأَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمٌ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا
مَنْ رَحِمَ وَهَا وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعَرَّقِينَ ٤٣ وَقِيلَ يَتَأْرُضُ أَبْلَاعُ مَاءِكِ وَنَسْمَاءِ
أَقْلَاعِي وَغَيْضِ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجَوْدِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلنَّقْوَمِ الظَّلِيمِينَ ٤٤ وَنَادَى
نُوحُ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّي إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمَيْنَ ٤٥ قَالَ يَنْتُوحُ
إِنَّمَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمِلَ عِنْكُمْ صَلِحًا فَلَا تَشَمِّنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِيْنَ ٤٦ قَالَ رَبِّي إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْتَلِكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي
وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ ٤٧ قِيلَ يَنْتُوحُ أَهْبِطْ إِسْلَمِيْ مِنَابِرَكِ عَلَيْكَ وَعَلَى أَمْرِي
مَمَّنْ مَعَكَ وَأَمْمُ سَمِيعُهُمْ يَمْسِهُمْ مَنَا عَذَابُ الْيَمِّ ٤٨ تَلَكَ مِنْ أَبْنَاءِ الْغَيْبِ نُوحِهَا
إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنَّتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُنْقَيْنَ ٤٩﴾

التفسير:

٤١ - قال نوح لمنْ آمن به بعد وقوع الأمر وحلول الموعد: اركبوا متن السفينية، ركوب المتمكن، بسم الله تعالى في انتلاقها وسيرها، وفي رُسُوها وقرارها. إن ربِّي لغفور لمنْ آمن به واتبعه، رحيم بآنيائه وأوليائه.

٤٢ - تَقَجَّرَتْ عَيُونُ الْأَرْضِ وَيَنْبَيِعُهَا، وَانْهَمَرَتِ السَّمَاءُ، وَفُتَحَتْ أَبْوَابُهَا بالمطر الغزير، والسفينة يحملها الماء، فتجري بهم وهي تمخر عباب الأمواج المرتفعة المتلاطمـة، ونادي نوح ابناً له بقي على كفره نداء الأب الشفيف؛ رجاء أن يكون لهذه الأحوال أثرٌ في نفسه؛ فيسعى للنجاة، ويَتَّبع أباه، وكان في مَعْزِلٍ عن الماء الذي انهر من السماء، وتَقَجَّرَ من الأرض، فالتقى من كل صوبٍ: يا بُنْيَ هَلْمَ إلينا، واركب معنا؛ لتنجو من الغرق والهلاك، ولا تكن مع الكافرين، فتتال عقابهم، وتخسر آخرتك.

٤٣ - فأجاب معانداً غير مكترتٍ: سأوي إلى جبل شاهق لا يصل الماء

إليه، حتى لا يصلني الطوفان. قال أبوه مشفقاً عليه: لا منجي اليوم من قضاء الله تعالى وعقوبته، إلا مَنْ رحمه الله تعالى من المؤمنين، وكان هذا هو النداء الأخير، إذ حالت الأمواج بين نوح وولده، فتغدر خلاصه وانقطع صوته، وأُغرق مع المُغرقين من الكفار، ولم تُشفع له قرابته من نبي الله.

٤٤ - وأمر الله تعالى الأرض أن تبتلع ماءها فيرتد إلى جوفها وأحاديدها، وبحارها وأنهارها، وأمر السماء بأن تكشف أمطارها، فانخفض الماء، ورسست السفينة على جبل الجودي، وقيل: بُعداً وهلاكاً للقوم الظالمين، فقد أهلكهم الله تعالى، ونجى عباده المؤمنين.

٤٥ - ودعا نوح ربّه متضرّعاً، فقال: ربّ إِن ابني من أهلي، وأنا مؤمن بوعدك، ومسّلّم لك، وأنت أحكم الحاكمين في أقدارك وتدبرك.

٤٦ - يا نوح إِنّه ليس من أهلك المؤمنين الذين وَعَدْتُ بنجاتهم، إِنّه عَمِلَ عملاً غير صالح، فاستحقّ الغرق، فلا ينبغي لك أن تسأل هذا السؤال، إنّي أتعهدك بالوعظ والتذكرة؛ لثلا تكون من الجاهلين بقضائي وعدلي في خلقني. «وهذا عتاب منه لنوح، وتعلّم له وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي حمله عليه الشفقة الأبوية، وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحامل له العلم والإخلاص في طلب رضا الله تعالى». (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي ٣٣٢/١).

٤٧ - قال نوح ﷺ: ربّ إِنّي أَبْرأُ إِلَيْكَ، وأستجير بك من أن أسألك ما لا علم لي به، وإن لم تغفر لي ما بدر مني بفضلك وترحمني برحمتك الواسعة، أكن من الخاسرين.

٤٨ - فُؤودي نوح: اهبط من السفينة بسلام منا، وبركاتٍ منا تصاحبك، فقد انتهى الطوفان، وخَلَّت الأرض من الفجّار، وتفيض عليك هذه البركات، وتظل في المؤمنين من ذريتك، إذ تتكاثر الذرية، فتصير أمّاً، أمّاً مِن اختار الكفر فإنّه يُمْتَّع في الدنيا إلى انتهاء الآجال، ثم ينال عذابه الموجع.

٤٩ - تلك القصص التي نَقْصَّها عليك - أيها الرسول - من الأخبار التي لا سيل لمعرفتها على هذا التفصيل والبيان إلا عن طريق وَحْيِنا، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل أن نُعْلَمَك بها، فاصبر على المكاره

والشدائد، فإنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعَالَى ماضيةٌ بِأَنَّ العَاقِبَةَ لِمَنْ تَحَلَّى بِالتَّقْوَى،
وَلَا زَمَّهَا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - هذا القرآن حجَّةٌ وبرهانٌ على صدق النبي ﷺ في دعوته.
- ٢ - عدل الله تعالى في قضائه وفَصَلِه بين خلقه، فلا محاباة ولا مجاملة ولا استثناء؛ فالكافر لا تنفعه قرابتُه من أهل الإيمان، والمؤمن لا تضرُّه قرابتُه من أهل الكفر.
- ٣ - قدرة الله تعالى وتصريفُه لهذا الكون وإرادته النافذة، وعظمة سلطانه، وهيمنته على مخلوقاته.
- ٤ - لطف الله بعباده المؤمنين، وشدة بأسه، وتنكيله بالكافرين.
- ٥ - عُدُّيَّ (اركبوا) بـ(في): لتضمينه معنى صيرروا فيها، أو معنى: ادخلوا فيها، أو للتمكُّن منها، وللإشارة إلى كَبِير حجمها.
- ٦ - أدب الأنبياء مع ربهم، ومعرفتهم بمقامه جلَّ وعلا.
- ٧ - دعوة الأبناء إلى الاستجابة لوصايا الآباء الصالحين ونصائحهم.
- ٨ - في القصة تسلية للأباء الذين ابتلاهم الله بأولادٍ غير صالحين، فقد يُبَتَّلُ الصالح بالطالع.
- ٩ - من أدب الدعاء أن يكون بما يوافق الشرع، وتجري به السنن.
- ١٠ - في الآية (٤٨) إخبار مستقبليٌّ بِأَنَّ هُنَاكَ أُمَّاً وجماعاتٍ من أهل الشقاء، سُيُمْتَعُّهُمُ اللهُ في الحياة الدنيا إلى أن يبلغوا آجالهم.
- ١١ - النظر في قصص الأنبياء، وفي سنن الله الماضية، يزيد المؤمن صبراً وثباتاً.
- ١٢ - ينظر: صورة جبل الجودي، كما في الملحق.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقُولُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْرَّقُونَ ﴾٥٠﴿ يَقُولُمْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَنِيهِ أَجْرًا إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾٥١﴿ وَيَقُولُمْ أَسْتَغْفِرُ رَبَّكُمْ شَمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَيْنَكُمْ مَدْرَارًا وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تُؤْلُمُنَا بُحْرِمِينَ ﴾٥٢﴿ قَالُوا يَهُودُمَا جَئْنَا بِبَيْنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيَ الْهَهَنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾٥٣﴿ إِنَّنَّا نَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَنَكَ بَعْضُءَ الْهَهَنَا بِسُوءِ قَالَ إِنِّي أُشَهِّدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشَرِّكُونَ ﴾٥٤﴿ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾٥٥﴾

التفسير:

٥٠ - وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأنكر عليهم افتراءهم الذي صار عادة لهم، وصار حهم بأصل العلة التي أصابتهم، وهي نسج الافتراطات، والاستسلام للأباطيل والأوهام.

٥١ - يا قوم لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً، فتسيئونظن بي، ما أجري إلا على الذي خلقني، وفطري على هذه الفطرة السوية، أفالاً تعملون عقولكم؟

٥٢ - ويا قوم استغفروا ربكم من الذنوب والخطايا، ثم توبوا إليه توبة خالصة، وفق منهجه تعالى الذي شرعه، يرسل السماء عليكم بالمطر الغزير المتتابع، ويزيذكم عزةً ومنعةً إلى عزتككم ومنتقكم، وقوة إيمانية وقوة مادية إلى جانب قوتكم المادية، ولا تُعرضوا عن دعوة الله، وعمماً أرغبككم فيه، وتنصرفوا، مصرين على الإجرام في حق أنفسكم وحق الآخرين.

٥٣ - فرددوا عليه: يا هود ما جئنا بآية تدل على صدق رسالتك وصححة دعوتك، حتى نسلم لها ونذعن بقولها، وما نحن بتاركي عبادة الههنا عن قولك، بل نتركه ولا نلقي له بala، ولسنا بمصدقين لك، مسلمين لدعوتك، بأي حال.

٥٤ - ما نقول إلا أنه قد أصابك، وحاق بك غضب الههنا بقدحك فيهم، فاتهموه بالجنون والوهم، وهي تهمة تواظأ عليها الكفار، ورشقوا بها الأنبياء. فرد عليهم هود ﷺ بما ينتم عن حلمه وصبره وثقته بمنهجه: إني أشهد الله،

واشهدوا جميعاً، أني بريء من شرككم، مُنْكِرٌ لآلہتکم التي تزعمون. أجابهم بما يدلّ على يقينه فيما هو عليه، ومُضيّه وعَزْمِه على دعوته.

٥٥ - استعينوا بمَنْ شئتم من دون الله من آلهتکم المزعومة، وأجمعوا أمرکم على الكيد بي، ولا تتمهلوا في ذلك، فتَحَدَّاهم عليهم السلام هذا التحدّي العجيب؛ ليكشفَ عن زيف آلهتهم، وانقطاع رجائهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - دعوة الأنبياء جميعاً إلى إخلاص العبادة لله تعالى، فلا ربّ غيره.
- ٢ - تَجَرُّد الأنبياء وإخلاصهم، إذ يتظرون أجرَهم من خالقهم.
- ٣ - من ثمرات الاستغفار والتوبة: الزيادة من الخيرات، والبركة في الأقوات، والقوة في الأبدان والأرواح.
- ٤ - في الآية (٥٢) إخبار مستقبليٌ عن فضل الاستغفار في جلب الرِّزق، وزيادة القوة.
- ٥ - وضوح دعوة الأنبياء وبساطتها، فلا تعقيد فيها، ولا غموض، ولا خفاء.
- ٦ - لجوء الكفار إلى الافتراءات والأكاذيب والأوهام، دليلٌ على عجزهم.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذُ بِنَاصِيَّهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴾٥٦﴾
 ﴿فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقَدْ أَبْغَثُوكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلُفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا نَصْرُونَهُ، شَيْئًا
 إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾٥٧﴾
 ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ نَبَيَّنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، بِرَحْمَةِ مِنْنَا
 وَبَحَسِّبَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِظٍ ﴾٥٨﴾
 ﴿وَتَلَكَ عَادٌ جَحَدُوا بِرَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَأَتَبَعُوا أَمْرَ كُلِّ
 جَبَارٍ عَنِيدٍ ﴾٥٩﴾
 ﴿وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ

فَوْرِ هُودٍ

التفسير:

٥٦ - حقاً توَكَّلتُ على الله تعالى ربِّي وربِّكم، فما من شيء يَدِبُّ على وجه الأرضِ، أو في باطنها، إلا رَهْنَ تدبير الله تعالى وتسيره. إنَّ ربِّي على

الحق، والعدل ملکه، يحكم بين عباده بالحق، ويهدیهم إلى الهدى، ويحفظ من سلك طریقه المستقیم. موازین حکیمه عادلة، وھدایته لخلقہ بینة، وسننه فیهم جاریة، یجازی المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. قال الألوysi: «مُظْلَعٌ على أمور العباد، مجازٌ لهم بالثواب والعقاب، كافٍ لِمَنْ اعتصم به، كَمْنَ وقف على الجادة فحفظها، ودفع ضرر الساقية بها». (روح المعانی للألوysi : ٨٣/١٢).

فكيف يأمن من نكب عن صراط الله المستقیم، وَلَقَ الامال على أحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع؟

٥٧ - فإن تُرْضُوا فقد أَدَيْتُ واجبي في إبلاغكم دعوة ربى الذي أحسن بي، وَدَبَرَ مصالحي، ويستبدلُ بكم قوماً آخرين، ولا تُرْضُونه شيئاً بـكفركم. إنَّ ربى رقيبٌ مهيمٌ حافظٌ.

٥٨ - ولما حلَّ قضاونا نجينا هوداً ومن صدق به واتَّبعه، برحمَةٍ منا، ونجيناهم من الريح العاتية التي عصفت بالكافرين، فدمَرُتهم.

٥٩ - وتلك قبيلة عاد أبعدها الله وأخزاها، عاندوا وكابروا، وجحدوا بعَمَّه، وأنكروا آياته الظاهرة في الأنفس والأفاق الدالة على وحدانيته، وَكَذَّبُوا بهود عليه السلام، وقد جاءهم بالحجج القاطعة والأدلة الساطعة، وعصوا رُسُلَه بتمرُّدهم وإعراضهم عن نبى الله هود عليه السلام، وانتادوا وخضعوا لأمر الجبارين الذين جبروهم على الكفر والعناد.

٦٠ - ومضوا تتبعهم اللعنات، وتُلْاحِقُهم الويلاَت، وَقَضُوا وهم مُبَعَّدون محرومون من رحمة ربِّهم، مطرودون من جنابه، وصاروا عبرةً لكل معتبرٍ ومثلاً لكل ظالم، ألا فليتبه كلُّ لبيب، وليحذر كلُّ حصيف من حال قوم عاد وماَلُهم، فقد كَفَرُوا ربِّهم، وجحدوا بربوبيته، ألا سحقاً لهم، كيف رفضوا دعوة نبىهم هود؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - مواجهة هود لقومه، وتحذير لهم مع عجزهم عن إيقاع الأذى به، من أعظم الآيات على صدقه وثقته بربه واطمئنانه لصحة منهجه. قال الزمخشري: «من أعظم الآيات أن يُواجه بهذا الكلام رجلٌ واحدٌ، أمة عطاشاً إلى إراقة

دمه، يرمونه عن قوس واحدة؛ وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالفتهم». (الكافل: ٣٨٢/٢).

٢ - في قول هود لقومه: ﴿إِنِّي نَوَّكُلُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ تعریض بهم أنهم تحت قهر الله تعالى وقبضته وتصریفه، وأن الآلهة المزعومة لا تضر ولا تنفع، وأن الذي حفظه هو الله تعالى. فالله تعالى على الحق والعدل ملوكه، موازين حکمه ثابتة، وسننه تعالى جارية لا تختلف ولا تتبدل، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءاته.

٣ - التوكل على الله تعالى سر القوة، وباعت الثبات.

٤ - قوله: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ جاء الفعل بواو الجماعة؛ لأن من عصى واحداً منهم فقد عصى الكل؛ إذ رسالتهم واحدة، وأياتهم يصدق بعضها بعضاً.

٥ - قوة الداعية والمصلح في دعوته ورسالته، في مواجهة قوى أهل الكفر والفساد والبدع والأهواء.

٦ - في التعبير بالأمر ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ مضافاً إلى ضميره ﴿جَاءَهُمْ﴾، وعن نزوله بالمجيء، ما لا يخفى من التفخيم والتهليل.

٧ - لما صاروا أثراً بعد عين، وخبراً بعد أن كانوا ملء البقاع والأسماع، وأمسوا مجندلين مطمورين تحت التراب، ناسب الإشارة إليهم بـ«تلک» ﴿وَتِلْكَ عَاد﴾.

٨ - ﴿وَيَسْتَخِلُّونَ رَبِّيْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ تعریض بأن الكافر ليس أهلاً للتمكين في الأرض.

﴿ وَإِلَىٰ نَمُوذَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقُولُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرْكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي فَرِيقِي مُجِيبٌ ﴾٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحُونَ فَدَكَنَتْ فِينَا مَرْجَوْا قَبْلَ هَذَا أَنْهَمْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ إِبْرَاهِيمَ وَإِنَّا لَفِي شَكٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾٦٢﴾
 قَالَ يَقُولُمْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَتِي مِنْ رَبِّي وَإِنَّتِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرِنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَرِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴾٦٣﴾ وَيَقُولُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ إِيمَانُهُ فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَإِذَا خَدَمْتُمْ عَذَابَ فَرِيقٍ ﴾٦٤﴾ فَعَفَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ عَيْرٌ مَكْدُوبٌ ﴾٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرُنَا بِنَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ أَمْنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْكَا وَمَنْ حَزَرِي يَوْمِيذِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾٦٦﴾
 وَأَخَدَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَصْحِحَهُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيْرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾٦٧﴾ كَانَ لَمْ يَعْتَنُوا فِيهَا أَلَا إِنَّ شَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ لَا بَعْدَ لِشَمُودَ ﴾٦٨﴾

التفسير:

٦١ - وأرسلنا إلى قوم شمود أخاهم النبي الله صالح ﷺ، فأمرهم بعبادة الله وحده، فهو المستحق للعبادة؛ لتفرده بالربوبية. ومن كمال ربوبيته وشواهد وحدانيته أنه خلقكم من أديم الأرض، وألهكم عمارة الأرض من الحرش والغرس، وهياً لكم سُبل العيش عليها، تنحتون جبالها، وتستغلون سهولها، وتنعمون بخيراتها، وتستخرجون كنوزها، فاستغفروه على ما بدر منكم، فإنه أمر بالاستغفار، ووعد بقبوله، ثم امضوا على طريق التوبة والاستقامة الذي أرشدكم إليه. إن ربى قريب من عباده المؤمنين، مجيب لمن سأله ودعاه ورغبه إليه.

٦٢ - فردوه عليه بسوء أدب، قالوا: يا صالح قد كنت فينا قبل أن تبشر منك هذه الدعوة مرجواً للخير والصلاح، لما كننا نراه فيك من مخايل النجابة، وكريم الشمائل، فما الذي حملك على أن تنهانا عن دين آبائنا وأسلامنا الذي ألفناه وأشربنا حبه؟ وإننا لفي شك وريبة مما تدعونا إليه.

٦٣ - **٦٤** - فبيّن لهم قائلاً: يا قوم أعلمتم وأبصرتم إن كنت على نور وبصيرة نافذة من أمر ربى، ويقيني أني على طريق واضح، أجيبي ثماراته،

وأتدوق حلاوته، وأستنشق نسمات الرحمة الربانية، وأشعر بها تغموري، فمن يخلصني من ربّي ويُجيرني من عقابه إن عصيته بعد أن تجلّت لي الآيات، وغشيتني الرّحمات، ولاحت لي البُشريات، فما تزidonني إن سرت طوع هواكم إلا خسارة تلو خسارة. ويا قوم هذه ناقة الله لكم دليلاً واضحاً على صدق نبوتي، وعظمته من أرسلني، وقدرته العجيبة، فاتركوها ترعى الكلا في أرض الله الواسعة، ولا تتعرّضوا لها بسوء؛ فياخذكم عذاب قريب عاجل.

٦٥ - ولكنهم كذبوا نبيهم، فبادروا إلى عقر الناقة، ولم يلقوا بالاً لتحذيره، ولم يتبرّصوا بها على صدق نبوته، بل ازدادوا كفراً وتمرداً، فنحروها عصياناً وتحدياً. فقال لهم صالح: امكثوا في بيوتكم ثلاثة أيام هي آخر أيامكم في الدنيا، وآخر عهدم بمداعها الزائل. ذلك وعد صادق من الله، لا سبيل لكم إلى تكذيبه ولا مانعه.

٦٦ - فلما انقضت المهلة نجى الله عليه السلام بلطفة ورحمته نبيه صالحًا ومنْ آمن به، من خزي هذا اليوم العصيب. إن ربّك يا محمد هو القوي في أخذه، تُخُور كل القوى، وتهلك العروش أمام قوته، العزيز الذي لا يُغالب، يُعزُ أولياءه ويُنصرهم، ويُذلّ أعداءه، فلا يمتنع عليه شيء.

٦٧ - وأخذت الصيحة المدوية الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بكفرهم وتمردهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين على رُكبهم، قد خارت قواهم وانهاد بنائهم، وخضعت رقابهم.

٦٨ - كأنهم لم يقيموا فيها بنعمة وعافية، بل صاروا أثراً بعد عين، وطمست معالم تلك المدائن التي كانت عامرة، فلم يبق منها إلا الأطلال الموحشة والديار المقفرة؛ لتكون عبرة ناطقة للبشرية، وتحذيراً من جحودهم نعَم ربهم. ألا سحقاً لهم في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - اتفاق دعوة الأنبياء جميعاً في التوحيد.
- ٢ - خلق الله تعالى الإنسان من عناصر الأرض، وجعله سيداً عليها.
- ٣ - غرس الأنبياء بذور المحبة والرجاء في القلوب، وبث الأمل في النفوس.

٤ - الاستغفار والتوبة غسيلٌ من الذنوب، ووسيلةٌ ودادٌ إلى ربنا الجليل. الاستغفار براءة من الذنوب واغتسال منها، والتوبة ندم ومضي على طريق الهدى والصلاح، لذا تعددت بـ(إلى)، أي: امضوا إلى طريقه وسيروا إلى رضاه؛ فغاية التوبة وطريقها يفضي إلى الله، وموكب التائبين يمضي إلى الله، وطريق التوبة يحتاج إلى ثآنٌ وتمهلٌ، وتبصرٌ وإرشاد وهداية ربانية، ومن ثم جاء التعبير بـ(ثمّ).

٥ - كراهة أهل الباطل للحق، وإن جاء به الأبرار المخلصون المعروفون عندهم بالصدق والإحسان.

٦ - عادة أهل الضلال في التشكيك، وإثارة غبار الشبه حول الحق؛ ليصرفوا الناس عن دعاته.

٧ - دعوة الأنبياء أقوامهم إلى التبصر والنظر.

٨ - بين صالح طرقه، ورَغَب فيه بيان ثمرته العظيمة، وهي الرحمة الربانية التي غمرته.

٩ - أضيفت الناقة إلى الله تعالى؛ لكونها آية عجيبة، جاءت على خلاف ما يعهدونه، ولبيان حرمة الاعتداء عليها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَّمًا قَالَ سَلَّمٌ فَمَا لِيَتْ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴾٦٩﴾
 ﴿فَمَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُّ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسْ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ طَرِيقَهُ ﴾٧٠﴾ طريقه، ورَغَب فيه بيان ثمرته العظيمة، وهي الرحمة الربانية التي غمرته.
 ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكتَ فِي شَرَنَّتَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾٧١﴾
 ﴿قَالَتْ يَوْمَئِي إِلَلَهُ وَإِنَّا عَجُورٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾٧٢﴾ قالوا أنَّ عجائب
 منْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَرِكْنُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَحِيدٌ ﴾٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ
 الرَّوْعُ وَجَاءَتِهُ الْبُشْرَىٰ يُجَدِّلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ ﴾٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوْهُ مُنِيبٌ ﴾٧٥﴾ يَتَابُ إِبْرَاهِيمَ
 أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ عَادُّ عَذَابٌ عَيْرُ مَرَدُودٍ ﴾٧٦﴾

التفسير:

٦٩ - قسمًا لقد جاءت رسالنا من الملائكة نبينا إبراهيم بالبشرى، فسلموا عليه، فرد عليهم، وأكرمههم، فبادر بإعداد الطعام وتقديمه لهم بخفقة وهمة،

واستغرق ذلك وقت يسير، رغم أنَّ الطعام الذي أعدَّه وقدمَه هو عِجْلٌ سمينٌ مشويٌّ.

٧٠ - دعاهم ﷺ إلى الطعام، فلم يمُدُّوا له يداً، فأحسَّ في نفسه خوفاً منهم؛ إذ الضيف لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة، أو قصد سيء، ولم يكن يعلم أنَّهم ملائكة، فلما رأوا منه ذلك بادروا إلى تهدئة روعه وطمأنة قلبه، فأظهروا حقيقتهم، وكشفوا عن مهمتهم التي من أجلها جاؤوا، وهي إهلاك قوم لوطن، وقطع دابرِهم بعد أن تمادوا في الكفر والطغيان.

٧١ - وكانت زوجته سارة قائمة على خدمتهم من وراء الستر، فضحتت فرحاً واستبشاراً، حين سمعت الملائكة الكرام يخبرون إبراهيم ﷺ بأمر نجاة لوطن ﷺ ومنْ آمن معه، وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوته، وفي غمرة هذه المشاعر الإيمانية بشَّرَّتها الملائكة بالذرية الصالحة، إسحاق، ومنْ صلبه يعقوب.

٧٢ - لكنها تَعَجَّبَتْ، وأشفقت على نفسها: كيف تحمل وتَضَعُ وهي في هذه السن! فقالت: يا ويلتنا - وهي كلمة تجري على ألسنة النساء إذا طرأ عليهن ما يَعْجَبُنَّ منه، ويُشْفِقُنَّ - أللد وأنا عجوز، وهذا زوجي شيخاً! إن هذا أمرٌ بالغ في العَجَبِ.

٧٣ - فأجابت الملائكة سارة: أتعجبين من هذا الأمر الخارق وأنتِ في بيت النبوة، ومهبط الوحي، وموئل الرَّحْمات؟ فخوارق العادات لمَنْ أَلْفَها ودرج عليها ليست بمستغربة. فتلك البشرة منتظمة في سلك الرحمة الربانية لكم يا أهل البيت. وليس ذلك على الله تعالى بعيد، فإنه صاحب المجد. ومن آثاره رُفْعَتْ لأنبيائه وأوليائه، وإنعامه عليهم بما يرفع ذكرهم، وينشر مناقبهم، ويرفع مقاماتهم، ويحمد لهم صبرهم، وحسن بلائهم، فيتبع ذلك بالمدح والثناء، ويجزل لهم المثوبة والعطاء، ويتحقق لهم المجد والسناء.

٧٤ - فلما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من خوف ومهابة ومفاجأة، واطمأن قلبه بهذه البشرة العظيمة التي اشرح لها صدرُه، وهشَّ فؤادُه، طلب إمهالَ قوم لوطن لعلهم يتوبون.

٧٥ - يؤكِّد الله تعالى ما عليه نبِيُّه إبراهيم من حَلْمٍ ورِقَّةٍ، وما اتَّسَم به من

تضرعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَابَةً إِلَيْهِ تَعَالَى وَشَعُورٌ بِالتَّقْصِيرِ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا يَنْطَوِي
عَلَيْهِ قَلْبُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ رَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ.

٧٦ - يا إِبْرَاهِيمَ دَعْكَ مِنْ هَذَا، فَإِنْ أَمْرَ اللَّهِ نَافِذٌ وَعِذَابُهُ حَالٌ لَا رَجْعَةٌ
فِيهِ، جَزَاءُ كُفْرِهِمْ وَانْحِرافِهِمْ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إكرام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لضيفه، وحفاوة بهم، إذ حيّاهم بأحسن من
تحيّتهم؛ لأنها جاءت بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ، كما
قدّم لهم أفضل ما عنده.

٢ - دلّ قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهُ وَرَبِّكُنَّهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على أنّ زوجة
النبي من أهل بيته. وفي هذا ردّ على الرافضة الذين زعموا أنّ أمّهات المؤمنين
لسن من أهل البيت.

٣ - فرح سارة بأمر نجاة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن آمن معه، وهلاك المكذبين به
المعرضين عن دعوته، يدلّ على قوة إيمانها ومحبتها وولائها للإيمان وأهله،
وبغضها وبراءتها من الكفر وأهله.

٤ - في قصة سارة درسٌ مُهِمٌ للمرأة المسلمة، أن تكون وثيقة الصلة
بالدعوة إلى الله تعالى، وأن تهتمّ بأمور المسلمين، وتستشعر أحوالهم،
لا يشغلها بيتها عن متابعة أحوال المسلمين، ومعايشة همومهم.

٥ - أدب الزوجة حين تتحدث عن زوجها، وتصفه أو تناديه، كما في
قول سارة ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ ولم تقل: وهذا إبراهيم ضعيفاً أو هرماً، فكلمة
الشيخ تحمل معنى الوقار والهيبة.

٦ - التربية الإيمانية لا تُخرج المرأة عن طبيعتها وفطرتها، ولكنها تُهدّبها
وتُرقّى بمشاعرها، وتحفظ عليها أنوثتها، فهي تربية فطرية راقية وهادفة.

٧ - أثر النساء في حياة الأنبياء. وهذه القصة صورة مشرقة للمرأة المؤمنة
التي تفيض مشاعرها حُبّاً يغمر أهل الإيمان، وكراهيّة لأهل الفسق
والعصيان.

﴿وَمَا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيَّءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذِرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾^{٧٧} وَجَاءَهُ قَوْمٌ
بِهِرَاعَنَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ الْسَّيِّئَاتِ قَالَ يَقُولُمْ هَؤُلَاءِ بَنَاقٍ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَلَا تُخْرُونَ فِي ضَيْفَنِ اللَّهِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾^{٧٨} قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاقِكَ مِنْ
حَقٍّ وَإِنَّكَ لَغَافِرٌ مَا تُرِيدُ ﴾^{٧٩} قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أُوَارِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾^{٨٠} قَالُوا يَنْلُوطُ
إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْنَا فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يُقْطِعْ مِنْ أَيْلَلٍ وَلَا يَلْدِفْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا
أَمْرَأَكَ إِنَّهُ مُصِيبَهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الْصُّبْحُ أَلَيْسَ الْصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾^{٨١} فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرُنَا
جَعَنَّا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرَنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾^{٨٢} مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴾^{٨٣}

التفسير:

٧٧ - لما انصرفت الملائكة من عند إبراهيم ﷺ وذهبوا إلى قرية سدوم في صورة بشرية، لقيهم لوطن ﷺ، واستضافهم مع خوفه عليهم من قومه أن يتعرضوا لهم بسوء، فكان في حرج شديد.

٧٨ - لما سمع قوم لوطن بوجود ضيف في بيته جاؤوا مسرعين، يبحث بعضهم بعضاً، ويتدافعون صوب بيته، فكان هجومهم على بيته مع رصيدهم السابق في الذنوب والعصيان بمنزلة القاصمة لهم، وأدرك ﷺ الغرض الخبيث الذي جاء من أجله القوم، ورأى أنهم عازمون على هذا الأمر، فعرّض عليهم البنات الأبكار؛ ليوقظ فيهم داعي الفطرة، كي يتزوجوا بهنّ حلاً طيباً، ويهجروا عادتهم القبيحة المنكرة.

٧٩ - ولكنهم أبوا وأثروا الفاحشة المنكرة على الفطرة، وقالوا للوط: لقد علمتَ أننا لا نريدُ الزواج من البنات، وأنتم تعلمُ بعثتنا.

٨٠ - ٨١ - حار نبئ الله لوطن ﷺ في هذا الموقف، كيف يحمي ضيفه؟ فقال لهم مبدياً أسفه واعتذاره: لو أنّ لي بكم قوة فتغلب عليهم، وأخلّصكم من أذاهم، أو ألجأ إلى ركن شديد فينتصر لنا! وفي هذه اللحظة العصيبة كشفت الملائكة مهمتها، فبشرّوه ﷺ وطمأنوه، وأمروه أن يغادر آخر الليل،

ومعه زوجه وبناته، على ألا يلتفت أحدُّ منهم صوب القرية، فيصاب بشيء من العذاب، وخرج لوط عليه السلام في جنح الظلام مع أهل بيته، وسار الجميع في الطريق الذي أمروا بالسير فيه، ولم يتَّلَفَّْ منْهم أحدٌ إلَّا امرأة لوط التي التفت نحو القرية، فأصابها ما أصاب قومها من العذاب الذي صَبَّهُمْ.

٨٣ - فلما حلَّ بهم قدْرُنا، وفاجأُتهم نِقْمَتُنا، قَلَبَنا قريتهم رأساً على عقب فكان أعلاها أسفلها، ورجمناهم بحجارة متتابعة، أُعدَّتْ لعذابهم من نار، فهي مصوَّبةٌ ومُعلَّمةٌ. وما تلك العقوبة من كل مَنْ تجاوز الحدّ، وانتهك الحقوق ببعيدٍ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الجزاء من جنس العمل: لما وقعوا في معاصٍ شتى عوقبوا بعقوبات شتى: عاقبهم الله بطمس أبصارهم التي عمّت عن نور الحق، وتلذذت بالحرام، وأخذتهم الصيحة تُدوِّي في آذانهم التي صُمِّمتُ عن الحق، وفُقِّبت قراهم، فصَرَّرَ عاليها سافلها؛ إذ انقلب موازينهم، واختلطت مفاهيمهم، فاقترفوا تلك الفاحشة، وهي إتيانهم الرجال من دون النساء، وعَدُّوها حَقّاً لهم، وحرَّموا الحلال الطيب على أنفسهم. وفي هذا انقلاب في ميزان الفطرة، وعَدُّوا الطهر والعفاف إثماً وجرماً، يستحق صاحبه الرجم والطرد، فجمع الله لهم بين ألوانٍ شتَّى من العذاب، لم تجتمع لغيرهم.

٢ - إكرام الضيف ورعاية حقوقهم، والترحيب بهم وحمايتهم، من شمائل الأنبياء.

٣ - في قول لوط عليه السلام لضيوفه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ إِمْكَانًا إِلَى رَكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى أهمية القوة في نصرة الحق ونشر الدعوة ومواجهة أهل الباطل؛ ولذا شرع الإسلام للجهاد، وأمر بإعداد القوة.

٤ - الكافر يعاقب على كفره، ولا تنفعه قرائبُه من أهل الإيمان في النسب أو المصادرة.

٥ - اللّوَاط من أكبر الفواحش، وهو طريق لأخطر الأمراض الفتاكـة، كالزهري والسيلان والهربس، ومرض الإيدز الذي لم يُعرف له علاج.

(يراجع: كتاب داء الإيدز والأمراض التناسلية، تأليف: الفاضل العبيدي عمر، ط دار النفائس سنة ١٩٩٣ م).

٦ - في جَعْل عاليها سافلها عقوبة؛ لِيُطْمَرُوا فِي التَّرَابِ . وقد ربط العلماء بين هذه الآية وضرورة دفن المصابين بالإيدز بعد موتهم، ويُوصى بحرق الجثة ودفونها في التراب على أعمق بعيدة؛ لأنَّ مرض الإيدز ينتقل عن طريق دم المريض ولعابه ومنيه.

٧ - الحلال هو الطَّيِّبُ الذي يتلاءم مع الفطرة، وأبوابه كثيرة وواسعة وميسورة، بينما الحرام خُبُثٌ يجافي الفطرة، وينافي الذوق، وتعافه النفوسُ السُّوَيّْةُ .

٨ - الزواج حصن للشباب، وعصمة وعلاج من الانحراف.

﴿ وَإِلَى مَدِينَ أَخَاهُرْ شَعِيبًا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرِيكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَيْنَكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٌ ﴾٨٤
وَيَنْقُومُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقُسْطِ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ لَا تَعْتَوْفُ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾٨٥﴿ بَقَيَتُ اللَّهُ خَيْرُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَحْفِظٍ ﴾
قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلُوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْتَرِكَ مَا يَعْبُدُ إِبْرَاهِيمَ أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَوْلُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾٨٦﴿ قَالَ يَنْقُومُ أَرْعَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَتِي مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ بِرْفَاقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا آنَهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا إِلْصَاحٌ مَا أَسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾٨٧﴾

التفسير:

٨٤ - وكما أرسلنا نوحًا وهودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطاً ﷺ ، أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً، فقال لهم مُتَرَفِّقاً: يا قوم اعبدوا الله وحده، ولا تُنقصوا في الكيل أو الوزن؛ فَسَسَّحُلُوا مَا لَيْسَ لَكُمْ، إِنِّي أَرَاكُمْ فِي عَافِيَةٍ ورَغْدَ مِنَ الْعِيشِ يُغْنِيَكُمْ عَنْ هَذَا، وَإِنِّي أَخَافُ عَيْنَكُمْ عَذَاباً يَعْمَلُوكُمْ، وَيَسْتَأْصلِكُمْ.

٨٥ - ويَا قَوْمًا أَوْفُوا الْمِكْيَلَ وَالْمَوْزُونَ بِالْعَدْلِ الَّذِي شَرَعَهُ رَبُّكُمْ، بِتَحْرِيرِ الطَّيْبِ الْجَيْدِ، وَتَجْنُبِ الرَّدِيءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ؛ بِأَنَّهُمْ تَهْضِمُوا حَقَوْقَهُمْ، أَوْ تَغْبِنُوهُمْ، أَوْ تُخْسِرُوهُمْ، أَوْ تَعْيِبُوهُمْ بِالسُّلْعَةِ؛ لِتَتوَاطُّوْهُمْ عَلَى كَسَادِهَا، أَوْ لِتَبْتَاعُوهُمْ بِأَرْخَصِ الْأَثْمَانِ، أَوْ بِأَنْ تَعْطُوهُمْ أَنْقُصَّ مِنْ حَقِّهِمْ، أَوْ تَأْخُذُوهُمْ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّكُمْ. وَلَا تَسْعَوْهُمْ إِلَى نَشْرِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِالْكُفْرِ، وَهَضْمِ الْحَقُوقِ، وَقَطْعِ الْطَّرِيقِ.

٨٦ - مَا أَبْقَاهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الرِّزْقِ الْحَالِلِ الطَّيِّبِ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَعْظَمُ بِرْكَةً، وَأَرْجِي نَفْعًا مِنَ الْحَرَامِ الَّذِي تَحْتَالُونَ لَهُ، فَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى طَاعَتِهِ وَاقْنُعوا بِهِ، وَأَدْوُا حَقَّ شَكْرَهُ، وَلَا تَطْمِعُوا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُصْدِقِينَ بِاللَّهِ، فَإِلَيْهِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى يَدْعُ إِلَى التَّعْفُونَ عَنِ الْحَرَامِ، وَتَحْرِيرِ الْحَالِلِ، وَمَا أَنَا بِرَقِيبٍ عَلَيْكُمْ، وَلَا بِمَانِعٍ لَكُمْ عَنْ تَعْاطِي الْحَرَامِ، بَلْ كُلُّ إِنْسَانٍ رَقِيبٌ عَلَى نَفْسِهِ، مَحَاسِبٌ لَهَا.

٨٧ - فَرَدُوا عَلَيْهِ مُنْكِرِيْنَ هَازِئِيْنَ: يَا شَعِيبُ أَصَالَاتِكَ الَّتِي تَقِيمُهَا، وَتَحَافِظُ عَلَيْهَا، تَأْمِرُكَ أَنْ نَتْرُكَ دِينَ آبَائِنَا، أَوْ تَمْنَعُنَا أَنْ نَتَصَرَّفَ فِي أَمْوَالِنَا كَمَا نَشَاءُ؟ وَمَا عَهْدُنَاكَ إِلَّا عَاقِلًا حَكِيمًا، فَكَيْفَ تَأْتِي بِمَا يُسَفِّهُ الْهَتْنَا، وَيُقَيِّدُ تَعَامِلَتْنَا! وَهُمْ بِذَلِكَ يُشَكِّكُونَ فِي دُعُوتِهِ، وَيَتَهَكَّمُونَ بِهِ، وَيَنْفُونَ عَنْهِ مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الْحَلْمِ وَالرِّشَادِ. وَهَذَا الْعَاقِلُ فِي نَظَرِهِمْ: هُوَ الَّذِي يُجَارِي الْجَهَلَاءِ، وَيُنَافِسُ طَلَابَ الدُّنْيَا، وَيَتَصَرَّفُ فِي أَمْوَالِهِ كَمَا يُرِوقُهُ دُونَ ضَبَابِطِهِ.

٨٨ - فَأَجَابُهُمْ بِرْفَقٍ: يَا قَوْمَ هَلَّا أَمْعَنْتُمُ النَّاظِرَ، إِنْ كُنْتُ عَلَى نُورٍ وَبِصِيرَةٍ، وَيَقِينٍ وَهُدَىٰ مِنْ خَالِقِي وَرَازِقِي، الَّذِي تَعَهَّلَنِي بِاللَّطْفِ وَالْإِحْسَانِ، وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا حَلَالًا طَيِّبًا مَبَارِكًا، وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَمْنَعَكُمْ مِنْ شَيْءٍ، وَآتَيْهُمْ فَتَشْكُوكُوا فِي قَصْدِي، وَتُسْيِئُوكُوا فِي الظَّرَرِ بِي. مَا أَرِيدُ مِنْ دُعُوتِي لَكُمْ إِلَّا الْإِصْلَاحُ الَّذِي يَعُودُ بِالْخَيْرِ عَلَى الْجَمِيعِ، وَيُقْيِيمُ الْمَوَازِينَ الْعَادِلَةَ، وَيَحْفَظُ لِلنَّاسِ حَقَوْقَهُمْ، وَمَا تَوْفِيقِي فِي حَاضِرِي وَمُسْتَقْبِلِي إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجُعُ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - دُعْوَةُ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ دُعْوَةُ هُدَايَةٍ وَإِصْلَاحٍ، وَارْتِقاءُ بِالْقِيمٍ وَتَهْذِيبُ لِلْأَخْلَاقِ، وَتَقوِيمُ لِلْسُّلُوكِ، وَمُعَالَجَةُ لِلْأَنْحرَافِ.

- ٢ - إرادة الإصلاح وحدها لا تكفي ، فال توفيق من الله تعالى وحده ، لمن توكل عليه ، ورجع إليه في جميع أموره .**
- ٣ - الترقيق واللطف ، والصبر والأنة ، وإظهار الشفقة والحرص على الخير ، قاسم مشترك في دعوة نوح وسائر الأنبياء ﷺ .**
- ٤ - نقص المكاييل والموازين وبخس الناس أشياءهم ، من المفاسد الموبقة للمجتمعات .**
- ٥ - المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي وال الحاجة إليها أعظم ، فالسرقة ممّن ليس بمحاج أعظم من وقوعها من المحجاج ؛ لهذا قال شعيب رض لقومه : ﴿بَيْتَ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُم﴾ .**
- ٦ - الحث على الرضا والقناعة بما أعطى الله ، والاستغناء بحلاله عن حرامه .**
- ٧ - الرجل الرشيد هو المسدّد في أقواله وأفعاله وأحكامه ، الذي يقف مع أهل الحق ويتصدر لهم ، ولا يبالي بأهل الباطل مهما بلغت قوتهم .**
- ٨ - استئنفاص الهمم ، ومخاطبة الشهامة والرجولة والرشاد في قلوب الرجال عند الشدائـد والأهـوال .**
- ٩ - الصلاة سبب لفعلـ الخـيرـاتـ ، وتركـ المـنـكـراتـ ، وزادـ للـدـعـاةـ ، وشـحـذـ لهمـتـهمـ فيـ الدـعـوةـ ؛ لـذـا شـرـعـهاـ اللهـ فيـ الـيـومـ وـالـلـيـلـةـ ، وـجـعـلـهاـ زـادـ المؤـمنـ ، وـحـصـنـهـ الـذـيـ يـلـوذـ بـهـ ، وـجـنـتـهـ الـتـيـ يـفـيءـ إـلـيـهاـ ، وـشعـارـهـ الـذـيـ يـتـميـزـ بـهـ .**
- ١٠ - الحرية لا تعني العبث والإباحية ، ولا تعني انتهاك الحرمات ، والتعدي على حقوق الآخرين ، بل لا بدّ من حرية منضبطة بشرعـةـ اللهـ التي تحفظ للناس حقوقـهمـ .**
- ١١ - الناصح للناس لا بدّ أن يكون قدوةً لهم ، فالكلام وحده لا يكفي من دون أن يترجم إلى أفعال ، والصلاح أساس الإصلاح .**
- ١٢ - النـظـرةـ الـمـادـيـةـ لـلـكـونـ وـالـحـيـاةـ وـالـنـاسـ نـظـرةـ قـاـصـرـةـ ، وـمـقـيـاسـ مـخـتـلـ ، وـمـعـيـارـ مـائـلـ لـاـ يـبـصـرـ حـقـائـقـ الـأـشـيـاءـ ، وـلـاـ يـقـيمـ لـلـأـخـلـاقـ وـالـقـيـمـ وـزـنـاـ ، وـلـاـ يـعـرـفـ لـلـفـضـائـلـ وـالـشـمـائـلـ مـعـنىـ .**

١٣ - انقلاب الموازين واحتلاط المفاهيم لدى تلك الأمم الكافرة، حتى صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

١٤ - القناعة والرضا بما رزق الله من أسباب البركة والسعادة.

١٥ - الجزاء من جنس العمل، فمن بحث أموال الناس، يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق قوله: ﴿إِنَّ أَرْبَكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: فلا تتسببوا في زواله بفعلكم.

١٦ - ينظر: صورة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿وَيَقُولُونَ لَا يَجِدُونَكُمْ شَقَاقًا إِنَّ يُصِيبَكُمْ مِّنْ أَصَابَ قَوْمًا نُوحٌ أَوْ قَوْمَ صَلَحٍ وَمَا فَقَدُ لُوطٌ مِّنْكُمْ بِعَيْدٍ ﴾٩١﴿وَاسْتَغْفِرُوا لِرَبِّكُمْ ثُمَّ تَوَوَّلُ إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحْمَةٍ وَدُودٍ ﴾٩٢
قَالُوا يَسْعَيْنَا مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لِنَرِيكَ فِينَا ضَعْفِيًّا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمَنَاكَ وَمَا أَنَّا عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾٩٣﴿قَالَ يَقُولُونَ أَرْهَطْتِي أَعْزُ عَيْتَكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَلَمَنْ نَمُوْهُ وَرَأَيْتَكُمْ ظَهَرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾٩٤﴿وَيَقُولُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِيلٌ سُوقٌ تَعَلَّمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيَهُ وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ وَأَرْتَقُبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾٩٥﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرُهُمْ بَخَسَنَا شَعِيبًا وَالَّذِينَ أَمْنَوْا مَعْهُ بِرَحْمَةِ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَحِيمِينَ ﴾٩٦﴿كَانَ لَهُ يَغْنُو فِيهَا أَلَا بَعْدًا لِمَدِينَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾٩٧﴾

التفسير:

٨٩ - لما لم تتفتح قلوبهم لدعوته وتمثيل لنصحه، ذكرهم بمصير من مضى قبلهم على طريق الكفر والضلالة، فناداهم نداء المشفق المنذر: ويَا قومي احذروا جريمة مخالفتي، ومغبة معادتي، أن تؤول بكم إلى مصير الأمم الهالكة، فينزل بكم العذاب والتلال، كما حدث لقوم نوح وقوم هود وقوم صالح. وما قوم لوط عنكم بعيد زماناً ولا مكاناً ولا حالاً.

٩٠ - وبادرُوا باستغفار الله تعالى قبل فوات الأوان وانصرام الزمان، ثم استقيموا على طريق التوبة الذي دعوتكم إليه. إِنَّ رَبِّي الَّذِي يَتَوَلَّنِي وَيَتَعَهَّدُنِي

رحيم بمن رجع وأناب، يتَوَدَّدُ لعباده بما يُقْرِبُهم ويُرْغِبُهم، ويحب المؤمنين ويحبُونه.

٩١ - فرَدُوا عليه متضيّرين نافرين: يا شعيب ما نفهم، ولا ندرك حقيقة ما تقوله. فجعلوا كلامه الواضح وحجّته البينة أمراً مُعْضلاً غامضاً، تعجز عقولهم عن فهمه، وإنَّا لنراك فينا ضعيفاً، فلا نبالي بمخالفتك، ولا نعبأ بما دعوت إليه، ولو لا وجود عشيرتك لرجمناك بالحجارة، ولا مكان لك في قلوبنا، ولا منعة تحول بيننا وبين الفتكت بك.

٩٢ - فأجابهم معاذًا ومُرَهِّبًا: يا قوم أحرمة عشيرتي ومودتهم أعز وأكرم عليكم من رعاية حق الله واجتناب محارمه وإكرام أنبيائه، وقد أعرضتم عن الله وأدبتم عنه! ولم تُلْقُوا بالاً لأمره ونهيه. إنَّ ربِّي الذي تَعَهَّدْنِي بكرمه، وأحاطني بإنعماته، محيط بكم وبكيدكم وبأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها.

٩٣ - ويا قوم امضوا على ما أنتم عليه من الأعمال التي تنسجم مع أهوائكم، مع تماكيكم في الدنيا وتتعمّلكم بها، إني ماض على ما أنا عليه من العمل. سوف تعلمون في نهاية الأمر مَنْ يأتيه عذابٌ يُذْلِه ويُهْبِئْه في دنياه، ويسْلِمُه لعذابٍ دائم في الآخرة، وانتظروا وتأهّبوا، إني معكم منتظراً، ومتأنّه لقضاء الله وحْكِمه.

٩٤ - ولما حلَّ قضاونا، نجَّينا بقوتنا وبأسنا شعيباً والذين آمنوا به، واتبعوه برحمتنا ولطفنا، وأهللنا الذين ظلموا أنفسهم، بالصيحة المدوية، فأصبحوا لم يبرحوا بيوتهم؛ إذ فاجأهم العذاب وهم في غفلة عنه، فهلكوا بالصيحة وهم جاثمون على رُكْبِهم، هامدون من هول ما أصابهم.

٩٥ - كأن لم يكونوا بالأمس ملء الأسماع والبقاء. ألا بُعداً لهم وسحقاً، كما بُعدَت ثمود، فالموقفُ واحدُ، والمصيرُ واحدُ، موقفُ على حافةِ الإثم، وشفيءِ الضلال، وسقوطُ في هاوية الشقاء والعذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - «الداعي إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق، ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك، وألا يُحبّطه أذى الخلق، ولا يصدّه عن شيء من دعوته، وهذا الخلق كماله للرسل صلوات الله عليهم وسلمه، فانظر إلى

شعيب ﷺ، وحسن خلقه مع قومه، ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعونه الأقوال السيئة، ويقابلونه المقابلة الفعلية، وهو يحلم عليهم ويصفح، ويتكلم معهم كلام مَنْ لم يصدر منهم له وفي حقه إلا الإحسان، ويهون هذا الأمر... أنه يعالج أممًا قد طبعوا على أخلاقِ، إزالتها وقلعها أصعب من قلع الجبال الرواسي...». (انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن .(٣٩٢/١).

٢ - لجوء الكفارة دائمًا إلى التهديد والوعيد حين تُعيّنهم الحُجُجُ، وتبهتهم الآيات، ويجدون في دعوة الأنبياء خطرًا على مصالحهم وأهواهم.

٣ - حقيقة المصلحة هي التي تصلاح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

٤ - مَنْ قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن مَلُومًا، ولا مذمومًا في عدم فعلِ ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه، وفي غيره ما يقدر عليه.

٥ - لا ينبغي للعبد أن يتَّكلَ على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لِمُسْدِيهِ، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقٌ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِيدٌ وَإِلَيْهِ أُنِيبٌ﴾.

٦ - حال أهل المكابرة واللجاج، حين تُعيّنهم الحُجُجُ، وتبهتهم الأجرة يتوعّدون، ويهددون.

٧ - الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بال مجرمين في سياق الوعظ والزجر.

٨ - استحباب ذِكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب، والبحث على التقوى.

٩ - التماس أسباب النصرة، وجواز الاستعانة بغير المسلم؛ لنصرة الحق.

١٠ - التعبير بالاسم الموصول ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ لبيان سبب استحقاقهم للعذاب، وهو ظُلْمُهُمْ لأنفسهم، وظُلْمُهُمْ لشعيب ومن آمن معه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِيَاتِنَا وَسُلْطَنِينَ مُّبِينِينَ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فَرْعَوْنَ وَمَلَائِيْهِ فَأَتَبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ يُرْشِيدِ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدُهُمُ التَّارِيْخَ وَبِسْسَ الْوَرْدُ الْمُورُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ بِسْسَ الرِّفْدِ الْمَرْفُودِ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقَرِيْنَ نَقْصَهُ عَيَّنَكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿٩٩﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَهُمْ رَبِّكُمْ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرُ تَشْيِيبٍ ﴿١٠٠﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقَرِيْنَ وَهِيَ ظَلَمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْهَ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ ﴿١٠٢﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٣﴾ يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكُونُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٤﴾ فَمَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا رَزِيرٌ وَسَهِيقٌ ﴿١٠٥﴾ خَلِيلِكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٦﴾ وَمَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاهُ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴿١٠٧﴾

التفسير:

٩٦ - حقاً لقد أرسلنا نبيينا موسى بآياتنا الدالة على صدق ما جاء به، ومعه معجزة ظاهرة بينة، وهيبة وجلال في النفوس، فلا يناله أحد بأذى.

٩٧ - أرسلناه إلى فرعون وحاشيته، فأتبعوا رأي فرعون، وأعرضوا عمّا جاء به موسى ﷺ. وما أمر فرعون بسديد، ولا مأمون العاقبة، بل هو ضالٌّ غاوٍ لا يأمر بخير، ولا يدعو لهدى.

٩٨ - يتقدّم قومه يوم القيمة، ويقودهم إلى النار، كما قادهم في الدنيا إلى الضلال، وينقادون له كما ينقاد القطيع إلى الراعي، فبليس المورد الذي وردوه.

٩٩ - وأتيعوا في الدنيا باللعنة تلاحقهم، فهم محرومون مبعدون، ويوم القيمة هم ملعونون مطرودون مبعدون، فبليس اللعنة بعد اللعنة.

١٠٠ - ذلك الذي سبق من أخبار القرى وأحوالهم نقصتها عليك - أيها

النبي - للعظة والاعتبار، فمنها الذي لا تزال آثاره باقية شاهدة على أهلها، كمائن صالح وقرى عاد وآثار الفراعنة، ومنها الخراب الشامل الذي طمر تحت الشرى، أو درس حتى عفا أثره، كقوم نوح وقوم شعيب.

١٠١ - وما ظلمناهم إذ أهلكناهم، ولكن ظلموا أنفسهم بإيرادها موارد التهلكة، فما أغنت عنهم معبداتهم التي عبدوها من دون الله من شيء، وما زادوهم غير إهلاك وتدمير.

١٠٢ - وتلك أمثلة لعقاب الله للقرى الظالمة. إن عقابه تعالى شديد موجع.

١٠٣ - إن في ذلك العذاب لعبرةً وعظةً لمن خاف عذاب الآخرة، فهو الجدير بالاتعاظ والاعتبار، وإن العقوبة الدنيوية التي لا تزال آثارها باقية لدليل وبرهان على عذاب الآخرة. ذلك اليوم العظيم يُجمع له الناس ويُحشرون، ويشهده الأولون والآخرون، وأهل السماء والأرض.

١٠٤ - وما نؤخر هذا اليوم العظيم، إلا لأن له أجلاً ووقتاً محدوداً لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فما تأخيره لعجز أو قصور.

١٠٥ - إذا حل هذا اليوم، فلا تكلم نفس إلا بإذن الله، ومواقف الناس يومئذ مختلفة، فمنهم من هو في عذاب وشدة، ومنهم من هو في رخاء ونعمه.

١٠٦ - **١٠٧** - فأما أهل الشقاء ففي النار، لهم فيها زفات وصرخات صاحبة تَنِيم عن حالهم، لا يثنين فيها، مادامت السموات والأرض، إلا من شاء الله إخراجه من عصاة المؤمنين.

١٠٨ - وأما الذين كتب الله لهم السعادة ففي الجنة، يسكنون في قصورها ودورها، ويَهْتَوُون بين ظلالها الوارفة، وأشجارها المثمرة، ما كثين فيها، عطاء لا ينقطع، ولا يُتَّقَصُ منه، إلا ما شاء الله، فكل مقدور إنما هو بمشيته تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - عبر بالمضارع **(يَقُدُّمْ قَوْمَهُ)** استحضاراً لهذه الصورة الرهيبة حتى كانها ماثلة أمام العيان، حين يتقدم فرعون موكب الهوان والعار، وقومه من ورائه، بينما التعبير بالماضي **(فَأَوْرَدَهُمْ)** يفيد التتحقق، وسرعة الحدث.

٢ - إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أن الأصنام لها حق الشفاعة عند الله.

٣ - خَصَّ بِالذِّكْرِ الزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فِي جَهَنَّمْ؛ لِلَّدَّلَةِ عَلَى شَدَّةِ الْكَرْبِ وَالْغَمِّ، وَفِرْطِ نَارِ الْأَسْى، وَلِهِيبِ الْحَزْنِ الَّذِي يَتَأجِجُ فِي صُدُورِهِمْ.

٤ - الْحَذْرُ مِنْ تَلْبِيسِ الْمُشْرِكِينَ وَزِخْرِفَتِهِمْ؛ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ باطِلٍ، وَتَظَاهِرُهُمْ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ.

٥ - لَفْتُ الْأَنْظَارِ إِلَى مَصَارِعِ الْمَكْذِبِينَ، وَمَسَارِحِ عَذَابِهِمْ؛ لِلْعُظَةِ وَالاعتبارِ، وَالْحَذْرِ مِنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَوْدَتْ بِهِمْ.

٦ - عَدْلُ اللهِ تَعَالَى فِي سَنَتِهِ وَأَقْدَارِهِ وَأَحْكَامِهِ.

٧ - هَلاكُ الْمُشْرِكِينَ دَلِيلٌ عَلَى فَسَادِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

٨ - مجِيءُ الْفَعْلِ **﴿شَقَوْا﴾** مُسِنِداً لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ شَقَوْا بِاختِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ، بَيْنَمَا جَاءَ الْفَعْلُ **﴿سُعدُوا﴾** مُبْنِياً لِلْمَفْعُولِ؛ لِأَنَّ الإِسْعَادَ مِنْ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يَمْلِكُ إِنْسَانٌ أَنْ يَسْعَدْ نَفْسَهُ، فَالسَّعِيدُ مَنْ أَسْعَدَ اللهَ.

﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مَمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ أَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلٍ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْفُوصٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كِلَمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بِهِمْ وَلَا هُمْ لَفِي شَكٍ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ كُلَّا لَمَّا لَيَوْقِنُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَانَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٢١﴾ فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغُو إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَرْكِنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ أَوْلَيَاءِ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِ النَّهَارِ وَرُزْلَفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلَّذِكِيرَاتِ ﴿٢٥﴾ وَأَصِيرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

١٠٩ - يُرشد الله تعالى رسوله محمدًا صلوات الله عليه وسلم بأنه لا يشك في ضلال عبادة هؤلاء المشركين، فهم سائرون على سُنن الآباء من قبل، ولا يُغَرِّنَك ما يتظاهرون به من مظاهر كاذبة ومزاعم زائفه، ولا تُغَتِّرَ بما أوتوا من

زخارف الدنيا وبهجهتها، فإنَّ الله يُعَجِّلُ لهم جزاء سعيهم في الدنيا، وفي الآخرة ينالُون عقوبهم التي يستحقونها، جزاءً عادلاً وافياً.

١١٠ - قسماً لقد آتينا موسى التوراة، فاختلاف فيها بني إسرائيل اختلافاً واضحاً، بين مصلدقٍ ومكذبٍ. ولو شاء الله لَعَجَّل العذاب للكافرين المشككين، ولكن أخْرَهم إلى أَجْلِ مُسَمّيٍ. وإنَّ أهْلَ الكتاب لفِي شَكٍّ مَشْوِبٍ بالرببيةٍّ ممَّا نزل على موسى، شأن قومك الذين يرتابون ويُشكّكون في القرآن.

١١١ - وإنَّ كُلَّاً من هؤلاء وأولئك السابقين واللاحقين، التابعين والمتبوعين، مَنْ نال نصيباً من عذاب الدنيا، وَمَنْ أخْرَ الله عذابه للآخرة؛ لَيُؤْفِيَنَّهُمْ ربك جزاء أعمالهم. إنَّه تعالى لا تخفي عليه خافية، ولا يَعْزِبُ عن علمه شيءٌ.

١١٢ - فإذا تبصرت طريق الحق، فاستقم أنت وَمَنْ تاب معك على منهج الله ودينه وَفَقَ أَمرَ الله، ولا تطغوا كما طغى مَنْ كان قبلكم، فجاوزوا حَدَّ الاعتدال، ووقعوا في إفراطٍ وتفريطٍ. إنَّه تعالى علِيمٌ بأعمالكم، ومُطلعٌ عليها.

١١٣ - ولا تميلوا إلى الظلمة، ولا تتبعوا سبيلاً لهم، ولا تأمنوا جانبهم، ولا تُمَالِئُوهُم على ظلمهم، فتصيبكم النار بلهيبيها. وما لكم من دون الله من أولياء يدفعون عنكم، ثم لا تُنصرُون من عذاب الله.

١١٤ - سبب النزول:

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةَ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَأَنْزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَزِلْدًا مِنْ أَيَّلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّاكِرِينَ﴾ قَالَ الرَّجُلُ: أَلِي هَذِهِ؟ قَالَ: لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي . (صحيف البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة. وصحيف مسلم في التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ برقم ٢٧٦٣).

التفسير:

وأقم الصلاة، وواظرْ عليها، وأدْ حَقَّها أول النهار وآخره، ويدخل في ذلك صلاة الصبح والظهر والعصر، وأوقات من الليل تقرب بها إلى الله، صلاة المغرب والعشاء وقيام الليل؛ إن الصلوات وسائر الأعمال الحسنة مما

يمحو الله بها السيئات. ذلك ذكرى لِمَنْ داوم على التذكرة، وحرص عليه، وانتفع به.

١١٥ - واثبت على الصبر، وتحلّ به، واحبس نفسك على طاعة الله، واصرّها عن معصيته؛ فإنَّ الله لا يضيع أجر مَنْ أتقن العمل، وراقب الله، ويرى الناس، وترفق بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تسلية للنبي ﷺ بموقفبني إسرائيل من التوراة، فقد اختلفوا فيها، كما اختلف الناس في القرآن بين مُصدق ومشكّك، وتضاربَتْ أقوال الكفار فيه.

٢ - الأمر بالاستقامة في الدين. وهو أمر ثقيل شديد على النفس، يتطلب جهاد النفس، والصبر على أداء الواجبات، وحمايتها من الموبقات المهلكات.

٣ - التحذير من الركون إلى الظلمة، ومما أتتهم على ظلمهم، فإنه يُفضي إلى النار.

٤ - الترغيب في لزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله، كلما فترت.

٥ - في الآية (١١٣) إخبار مستقبلٍ بأنَّ جزاء مَنْ يميل إلى الكُفَّار الظلمة يُكلِّه الله تعالى إلى نفسه.

٦ - الاستقامة إنَّما تكون على منهج الله، وبقدر معرفة العبد بربه، وتعظيمه لأوامره، يستقيم.

٧ - من آثار الاستقامة: «أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمُسْتَقِيمُ رَاعِيًّا صَلَحتْ رِعْيَتِهِ، وَإِذَا كَانَ مَرِيًّا تَوَفَّقَ تَلَامِيذهُ، وَصَلَحتْ بِإِذْنِ اللهِ أَعْمَالَهُمْ وَاسْتَقَامُوا، وَإِنْ كَانَ الْمُسْتَقِيمُ رَبُّ مَنْزِلٍ اسْتَقَامَ أَهْلَهُ، وَصَلَحتْ ذُرِيَّتِهِ بِإِذْنِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ زَارِعًا كَثُرَّ خَيْرًا وَبُورَكَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ تَاجِرًا رَبِحَ تِجَارَتِهِ، وَإِنْ كَانَ صَانِعًا تَدَدَّمَتْ صَنَاعَتِهِ، وَلَا شَكَ أَنَّهُ مَتَى صَلَحتَ الْأَفْرَادُ وَصَلَحَ حَالُهَا اسْتَقَامَتِ الْأُسْرَ بِإِذْنِ اللهِ، وَمَتَى اسْتَقَامَتِ الْأُسْرَ اسْتَقَامَتِ الْأُمَّةُ بِأَكْمَلِهَا». (الأنوار الساطعات لآيات

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بِقَيْةٍ يَهْوَنُ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمْنَ أَنْجَحَنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرْفَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْمُرْدَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَأُلُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحْمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقُهُمْ وَتَمَّتْ كَلْمَةُ رَبِّكَ لَأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نُثِّتُ بِهِ فَوَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْظُرُوا إِنَّا مُنْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

التفسير:

١١٦ - فهلاً كان فيمْ قبلكم أولو معادن نفيسة، ونفوس زكية، وهم عالية، ينهون الناس عن الفساد في البلاد، إلا قليلاً ممن أنجاهم الله تعالى بصلاحهم ونصحهم، واتبع الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم سبيل الترف، ووضعوا الأمور في غير نصابها - وهم الأكثرون - فقاتلوا على الرياسة والسلطان والشراء؛ لينعموا بالمال والجاه، وسلكوا لذلك كل سبيل، وكانوا مجرمين بفجورهم وفسادهم، وإعراضهم عن طريق الصلاح ومحاربتهم للحق، فاستحقوا الهلاك.

١١٧ - ومن سنن الله تعالى الدالة على عدله ورحمته أنه لا يُهْلِكُ القرى ظلماً لها، وأهلها مصلحون، بل يُهْلِكُ القرى الظالمة التي يسعى أهلها إلى الظلم والفساد.

١١٨ - ولو شاء ربك لجعل الناس جماعة واحدة على كلمة التوحيد وسَنَنَ الأنبياء، ولكنه تعالى لم يجبر العباد على الحق بل دعاهم إليه، ورَغَبَ بهم فيه، وجعلهم مختارين، فكان منهم المؤمن، وكان منهم من حَكَمَ هواء، فكانوا - ولا يزالون - مختلفين.

١١٩ - إلا مَنْ رَحْمَهُ خالقُكَ وهاديكَ، وعصمه من الزَّلَلِ وَفَقَهَ للحق،

ولذلك الحق والابتلاء خلقهم؛ ليميز المؤمن من الكافر. وبهذه السنة الكونية تتحقق كلمة ربك ووعيده لأهل الشقاء الذين آثروا طريق الضلال، فتتمليء منهم جهنم؛ لكثرتهم.

١٢٠ - وكل ما مضى في هذه السورة وغيرها نقص عليك من أنباء الرسل وأحوالهم مع أقوامهم ما نزيلك به ثباتاً على ثباتٍ؛ بكثرة المواتع، وتصريف القول، وتوارد الأنباء، والتأسي بأخوانك الأنبياء، والتسلل بما كابدوه وما لاقوه من أقوامهم من تكذيب وإعراض وجحود، وجاءك في هذه السورة الحقُّ بِينَا صُرَاحاً، وموعظةً وذُكرى ينتفع بها.

١٢١ - يأمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يتوعد المشركين: قل يا محمد للذين لم يُصدِّقوا، ولم يَذْكُروا، أن يستمروا على ما هم عليه من الضلال، فإنما ماضُون على ما نحن عليه من الإيمان والإصلاح، وانتظروا قضاء الله فيكم إننا منتظرون قضاء الله وفضله بيننا وبينك.

١٢٢ - ويعلم الله وحده السموات والأرض، فلا يخفى عليه شيء من أحوال عباده، وإليه يرجع الأمر كلُّه في الدنيا والآخرة، فاغبُّه حق العبادة، وتوكُّلْ عليه حَقَّ التوكل. وما رُبِّك بغاْفِل عن أعمال العباد، بل هو مُطلِّعٌ عليها ومحصِّنها؛ ليجازِيكم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجود الدعاة الصادقين والمصلحين الذين يُصلِّحون ما أفسد الناس بحكمة وبصيرة وجِدْ، نعمةٌ من نعم الله تعالى على الأمم والشعوب.

٢ - الفساد والظلم من أهم أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، ويقال: إنَّ الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم.

٣ - الترف داعيةُ السُّرَفِ المفضي إلى الفسق والعصيان والظلم والإجرام، يظهر هذا في الكبار والموسرين، ثم ينتقل إلى الفقراء المعوزين، فتسوء حال الأمم، وتتدحرج أخلاقها ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ تُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُرْتَفِئَهَا فَسَقَوْهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

٤ - التحذير من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع

العدل - الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم - أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تترك فيها، ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمه وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الإسلام والظلم؛ ذلك أنَّ العدل نظام كل شيء، وإذا أُقيمتْ أمرُ الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن صاحبها من أهل الدين، ومتى لم تَقُمْ بالعدل لم تَقُمْ، وإن كان صاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخرة». (الاستقامة: ٢٤٧/٢).

٦ - الصلة القوية بين الانغماس في الترف والحرص عليه، وبين الإجرام؛ لأنَّ تابع الشهوات متقلُّ بالأثام، يسعى للعيش في تَرَفٍ، ويسلك لذلك أيَّ وسيلةٍ.

٧ - الاختلاف سنة الله تعالى في خلقه إلا منْ عصمه الله ورحمه.

٨ - خُتِّمت السورة بما بدأت به من الأمر بعبادة الله وحده، والاتكال عليه، والتحذير من عقابه: ﴿وَمَا رَبُّكَ يُغَفِّلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ليتناسقَ البدُءُ مع الختام.

